رامي طويل

قبل أن تبرد القهوة

قصص

دار الساقي

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

قبل أن تبرد القهوة

(مجموعة قصصية)

رامي طويل

عن الرواية..

قيل عن روايته السابقة «رقصة الظلّ الأخيرة»: «تفاصيل منمنمة» جريدة الأخبار
«شعر النثر وحلم الواقع» جريدة السفير
«أسلوب مشوّق وسرد عميق» جريدة الحياة

نبذة الناشر:

حين اقتربت المرأة الخمسينية من الفتاة الشابة كانت واثقة أنها تنتظر حبيباً لن يأتي.
«لقد متّ قبل ثلاثة أيام. إنني الآن أبحث عن فرصة جديدة» أوقعته العبارة في الذهول بعدما قالتها لرفيقتها على مقربة منه فبات هاجسه أن يدرك إن كان حياً أم ميتاً.
رغم ما تلقنه عنصر الأمن عن أنّ المثقفين أعداء الوطن، غير أنه يجد نفسه فجأة يتبنى ما يقوله الكاتب المعارض.
أبطال مهمشون يحاولون البحث عن مكانٍ لهم في عالم يضج بالظلم والقسوة لتغدو تفاصيلهم الصغيرة المهملة هي الأكثر واقعية...
خمس عشرة قصة تقرأ بشغف «قبل أن تبرد القهوة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منشور سرّي

لن ينسى فريد الاستيقاظة المميزة في ذلك الربيع البعيد، حين تناهى إلى سمعه هدير طائرة الهيلوكبتر وهو يقترب رويداً رويداً. فتح عينيه السوداوين على اتساعهما ليزداد بريقهما ألقاً وهما تلمحان السماء مزدانة بألوان زاهية متعددة، وكأنها تمطر شلالات من ألوان قوس قزح. قفز من السرير فرحاً، تشبّث بحديد النافذة مطلقاً نظره نحو السماء ليتبين كمّاً هائلاً من القصاصات الورقية ترفرف في سماء المدينة، بعد أن رمتها طائرة الهيلوكبتر، المستمرة بطوافها الذبابيِّ على شكل دوائر تتسع وتضيق، حسب مشيئة الطيّار.

أحسّ فريد بقلبه الصغير يخفق فرحاً، وهو يرقب تلك الغيوم الملوّنة تدنو من الأرض، ويسمع صيحات رفاقه في الشّارع يركضون مهللين، ولم يدرِ إلّا وقد وجد نفسه بينهم، يركض حافياً مثلهم، يهلّل ويصيح بصوتٍ ملؤه الفرح، غير مكترثٍ بنثرات الزجاج والحصى الصغيرة التي تخز قدميه الطريّتين.

حين بدأت أولى القصاصات تصل إلى متناول أيدي الأطفال بدأ السباق الفعليِّ للحصول على أكبر عدد ممكن منها.

امتدّت الأيدي الصغيرة نحو السماء تحاول التقاط القصاصات قبل أن تصل إلى الأرض، كانت الألوان كثيرة، وزاهية، لكنّ فريد أحسّ بانجذاب فطريٍّ نحو اللون الأزرق، فراح يسعى وراء القصاصات الزرقاء أينما حملها الهواء، وأينما سقطت، وكأنّه يجمع قطعاً صغيرة من السماء.

بعد دقائق قليلة كانت جيوب فريد مليئة بعشرات القصاصات الزرقاء، مشوبةً بعدد قليل من ألوان أخرى، كالأحمر والأصفر.

– انظروا هناك.

صاح أحد الأولاد، مشيراً إلى الطائرة التي كانت تحلِّق في هذه اللحظة على علوٍّ منخفض يسمح للأولاد برؤية شخصٍ يقف ببابها، فارتفعت الصيحات، وامتدّت الأيدي ملوّحة للطائرة، مطالبةً بمزيد من الألوان، استجابت الطائرة لنداء الأولاد، ولكن لم يخرج منها غيوم ملوّنة هذه المرّة، وإنّما عدد كبير من مظلّاتٍ صغيرةٍ تحمل كلٌّ منها في نهايتها ما يشبه صرّة العيد. ارتفع الهتاف مجدداً، وحثَّ الأولاد خطاهم الحافية خلف المظلات، التي راح الهواء يحملها بعيداً.

لم ينتبه الأولاد إلى أنّهم اجتازوا حيّهم، وباتوا يركضون مع عشرات الأولاد من الأحياء الأخرى بأيديهم الممدودة نحو السماء، ساعيةً للحصول على صرَّةٍ قد تحمل الفرح في طيّاتها.

استطاع فريد، أخيراً، الفوز بصرّةٍ كبيرة نسبياً بعد أن علقت إحدى المظلّات بعمود الكهرباء، ولم يتجرّأ سواه على تسلّق العمود، والحصول عليها.

على سطح البيت، في الركن المخصّص لألعابه السريَّة جلس فريد سعيداً مع زهرة، ابنة الجيران التي تصغره بسنتين، والتي قرّر قبل بضعة أيّام، وهو على وشك أن يغفو، أنّه سيتزوجها عندما يكبر. كانت زهرة حزينةً لأنّها لم تستطع الحصول على أكثر من قصاصتين واحدة حمراء، وأخرى صفراء، فقام فريد بانتقاء كلّ الألوان التي تسلّلت إلى الأزرق الذي سكن جيوبه، وقدّمها إلى زهرة التي ضحكت عيناها بامتنان، ما دفع فريد إلى التجاسر أكثر، وتقديم بعض بطاقاته الزرقاء إليها، مستمتعاً بضحكة عينيها التي ازدادت ألقاً، ومن ثمّ قام بحلِّ الصرّة، وإخراج ما فيها من قطع الحلوى، وتقاسمها مع زهرة، وأمضى ساعتين من الوقت يستمتع بطعم الحلوى ممزوجاً بالضحكات المتواصلة لزهرة.

في البيت قام فريد بترتيب بطاقاته الزرقاء بشكلٍ أنيق، وأثناء ذلك قرأ بعض ما كتب عليها من عباراتٍ بدت غامضةً بالنسبة إليه (الحكومة تهنئ جماهير شعبنا في هذا اليوم العظيم)، (العيد الذهبي، كلّ عام وأنتم بخير)، (معاً نحو مزيد من التطوّر والتقدم برعاية حزبنا المجيد)... لم يكترث فريد لتلك العبارات، وكان ما يشغله هو بعض البطاقات التي تعرّضت إلى أضرار طفيفة جرّاء بقائها في جيوبه فترة طويلة، فقام بتسويتها، ووضعها داخل كتاب القراءة السّميك علّها تستعيد رونقها.

في المدرسة هلّل فريد مع رفاقه حين أعلن المدرّس أنّه يوم للاحتفال بالذكرى المجيدة لميلاد الحزب، وأنّه لا دروس هذا اليوم.

نزل الأولاد إلى باحة المدرسة، يرقصون ويهللون على أنغام الأناشيد الوطنية، التي تبثها مكبرات الصوت عبر الإذاعة المدرسية، ومن ثمّ استمعوا إلى مدرّسيهم وهم يلقون الخطابات الاحتفالية، ويسردون وقائع المسيرة التاريخيّة لحزبهم الذي استطاع بعد نضالٍ طويلٍ ومريرٍ، أن يصل إلى سدّة الحكم، ويقود البلاد بحرصٍ كبيرٍ نحو التّقدم، والتّطور، والازدهار، ويؤسّس لمستقبلٍ مشرق لأطفال هذه الأمّة.

صفّق فريد مطوّلاً مع رفاقه، وهتف بعبارات لا يعرف معناها، لكنه جاهد ليكون صوته مسموعاً، وأحسّ سعادةً عارمة تجتاحه حين اختاره مدير المدرسة مع بعض رفاقه لتأدية الأناشيد الوطنية –التي يحفظونها جيداً– على المنبر، أمام ذلك الحشد الكبير، وباستخدام جهاز مايكرفون لطالما دغدغ أحلام فريد، ورغب أن يجرب صوته عبره.

أنشد فريد بمتعة، وجاهد ليعلو صوته فوق أصوات رفاقه، وهو يحاول أن يسترق السمع في الآن ذاته ليعرف ماهية صوته الصادر عن المكبّرات الموّزعة في كلّ أركان المدرسة.

لم يشعر فريد بالتعب ذلك اليوم، رغم البحّة التي أصابت صوته بعد أن استهلك طاقة حباله كلّها في الإنشاد أمام المايكرفون. وكانت المفاجأة الكبرى حين لم يطلب إليه والده أن يأوي إلى الفراش في الساعة الثامنة كما هي العادة، وإنّما جمعه مع إخوته الثلاثة، وطلب إليهم الجلوس أمام التلفاز لمتابعة تمثيلية السهرة.

إذاً هو يوم استثنائيّ بكلّ تفاصيله. فها هو فريد يجلس أمام التلفاز لمتابعة سهرة تلفزيونية لطالما حلم أن يسمح له بمتابعتها.

حين انتهت المذيعة من تقديم السهرة – بعد أن أعلنت أنّها تُبثُّ احتفالاً بالذكرى الخمسين لميلاد الحزب العظيم – اختفت الألوان من شاشة التلفاز، وتحوّلت إلى اللونين، الأسود والأبيض، وكأنّ زمناً آخر فرض نفسه في هذه اللحظة على واقع بدا مزداناً بالألوان المشرقة منذ الصباح.

بعد لحظات من بدء السهرة شعر فريد بانجذابٍ غريب نحو البطل، ذلك الشاب الأسمر بلحيته الشعثاء، وصوته الأجشّ، وحقيبته المعدنية التي حملها معه وهو يدخل القرية كمدرّس لأطفالها، كما شعر بالحزن لوجود فتاة جميلة في القرية مصابة بالخرس. أخذت أصابع فريد تمتدّ إلى حنجرته بشكل لا إراديّ كلّما أطلت الفتاة الخرساء على الشاشة، فيتحسّس حنجرته، ثمّ يطلق بعض الهمهمات الغريبة ليتأكّد من أنّه لم يفقد صوته المبحوح.

ازداد تعلّق فريد ببطل السهرة، وهو يراه يصارع الإقطاع، ويقاتل الظَلَمة، ويدافع عن فقراء القرية، ويتلو عليهم حقوقهم بالحصول على حياة كريمة بعيداً عن الذلّ والمهانة. راح فريد، مع تقدم الوقت، يمارس لعبته المحبّبة بأن يتابع الأحداث، وهو يتخيل أنّه البطل، ويجهد مخيلته في محاولات لتركيب صورة وجهه الصغير–الذي يعرفه جيداً في المرآة– مكان وجه البطل الذي أسره بطيبته وشهامته، رغم ملامحه المبالغ بقسوتها.

أثناء المتابعة أدرك فريد أنّ والده قد سبق له أن شاهد هذه التمثيليّة عشرات المرّات قبل الآن، فهو يسرد لزوجته في كلّ لحظة ما سيحدث بعد قليل، وقد أفسد على ولده انسجامه مع إحدى الذروات الدراميّة، حين قام البطل بالدفاع عن الفتاة الخرساء من ظلم شديد وقع عليها، ليأتيه بعد ذلك صوت والده آمراً:

– أدر وجهك إلى الحائط.

انصاع فريد لأمر والده، لكنّه لم يستطع الحفاظ على وضعيته، فقد أحسّ بأنّ شيئاً مهمّاً سيفوته في هذه اللحظة، فالفتاة الخرساء جاءت لزيارة البطل في غرفته التي يعيش فيها وحيداً.

عبر زاوية نظر حادة استطاع فريد التأكّد أنّ والده انشغل بالمتابعة ونسي أمره، فاسترق النظر إلى التلفاز ليجد الفتاة الخرساء تقف مبتسمة أمام البطل الذي يحدّق فيها باستغراب، ومن ثمّ بدأت بخلع ملابسها، لتزحف الكاميرا بهدوء شديد وتستقرّ عند ساقيها العاريتين، وقد تكوّم فستانها بين قدميها، شعر فريد بانتعاظٍ شيئه بين فخذيه في هذه اللحظة، وبات يسمع صوت أنفاسه كضجيجٍ صاخب، وخشي أن يكون والده قد لاحظ شيئاً مما يحدث، لكن البطل لم يخذل فريد هذه المرة، فقد أنقذه من ورطته بأن دنا من الفتاة الخرساء بهدوء، وقام بتغطية جسدها العاري. تنهّد فريد ممتناً، قبل أن يأتيه صوت والده كصفعة قويّة في هذه اللحظة ليوقظه من نشوته الصغيرة:

– تابع الآن.

استدار فريد، وعاد للمتابعة، ولكن دون تركيز هذه المرّة، فالساقان العاريتان للفتاة الخرساء ظلّتا تضيئان الشاشة أمامه رغم كلّ ما يدور من أحداث، إلى أن وصل رجال الاستخبارات إلى القرية باحثين عن البطل، واصفين إيّاه بالمخرّب، والخارج عن القانون، والمهدّد لأمن البلاد واستقرارها. عندها شعر فريد بحماسة زائدة وهو ينتظر من البطل أن يجسّد مفهوم البطولة الحقيقية، ويلقّن رجال الاستخبارات درساً حول أهمية الحريّة، وحقّ البشر بالعيش الكريم، كما كان يردّد أمام الإقطاع، وأمام أهل القرية. لكن ذلك لم يحدث، ففي اللحظة التي اقتحم فيها رجال الاستخبارات غرفة البطل أردوه أرضاً، وبدأوا بضربه وتعذيبه، ورفسه بأحذيتهم العسكرية، بينما فريد يغلق عينيه المغشيتين بالدموع، ويعتمل الصراخ في جوفه...(انهض واضربهم، لا تستكن لهم، أنت البطل)، لكن البطل خذله هذه المرّة، وانتهى به الأمر مرميّاً على الأرض مضرّجاً بدمائه. وقام أحد العناصر بكسر قفل حقيبته المعدنية، وفتحها ليظهر داخلها عدد كبير من الصحف، وعلى رأسها ما كان يبحث عنه رجال الاستخبارات، صحيفةٌ كتب عليها بخطّ عريض(البعث – العدد الأول).

انتهت السهرة في هذه اللحظة، وعادت الألوان الزاهية إلى شاشة التلفاز، وبدأ بثٌّ متواصل للأناشيد الوطنية، الأناشيد ذاتها التي ردّدها فريد اليوم في المدرسة حتى بحّ صوته.

لم يستطع فريد النوم تلك الليلة. كان مسكوناً بهاجس البطل الذي أسره على مدى ساعة من الزمن، وخذله في اللحظات الأخيرة. أمضى ليلته وهو

يستعيد تفاصيل ما حدث، ويهمهم بين لحظة وأخرى...(كان عليك أن تضربهم، أنت الأقوى)، وعندما تعود إلى ذاكرته تلك الساقان العاريتان، بكلّ بياضهما الحليبيّ، كان فريد يتنهّد، ويتمتم (لو كنت مكانك لما غطّيت ذلك الجسد العاري الجميل).

مع انبلاج الفجر دخل فريد بالنوم، دون أن تحفظ ذاكرته من ألوان ذلك اليوم غير البياض الحليبيّ لساقين عاريتين في شاشة التلفاز.

في اليوم التالي غادر فريد المدرسة بعد يوم دراسيّ طويل، فمظاهر الاحتفال والابتهاج انتهت. وعاد المدرّسون إلى سحناتهم الجديّة الصارمة.

في طريقه إلى البيت توقّف فريد أمام المكتبة. تردّد طويلاً بعد أن أخرج النقود من جيبه. تلفّت حوله مراراً قبل أن يجرؤ على دخول المكتبة، والوقوف مرتبكاً أمام البائع الكهل، الذي زاد من وطأة الموقف حين سأله بنبرة جافّة:

– ماذا تريد؟

ضغط فريد كفّيه المقبوضتين، المتعرقتين، وأجاب بصوت مرتجف:

– جريدة البعث.

ابتسم البائع عندئذ، واتّضحت أسنانه الصفراء، ثمّ قدّم الصحيفة لفريد، الذي دفع النقود، وغادر المكتبة بسرعة. وعند ناصية الشّارع توقّف ليرقب الطريق، وحين تأكّد من خلوّه دسّ الصحيفة داخل ملابسه المدرسية، وركض مبتعداً بسرعة كبيرة.

قطع فريد المسافة إلى بيته راكضاً. ودون تردّد صعد السلالم بسرعة، ليصل إلى السطح، وينزوي في الركن المخصّص لألعابه السريّة، وهناك جلس يقرأ الصحيفة بنهم شديد. وحين انتهى من ذلك أحضر صندوقا معدنياً صدئاً، كانت جدّته قد تخلّت عنه منذ زمن بعيد، أخفى فريد الصحيفة داخل الصندوق، بعد أن اخترع له قفلاً لا يمكن لغيره أن يفتحه، ونزل عن السطح منتشياً بشعور غريبٍ بالانتصار.

منذ ذلك اليوم أدمن فريد زيارة المكتبة كلّ يوم. ولم يعد بحاجة لأن يطلب الصحيفة من البائع، الذي بات يبتسم مكشّراً عن أسنانه الصفراء لدى رؤيته لفريد، ويقدّم له الصحيفة مباشرة، فيدسّها فريد تحت ملابسه، ويعدو راكضاً إلى السطح، ليقرأها، ويتجسّس عبرها على أخبار رئيس الجمهورية (الأمين العام للحزب)، فيعرف تفاصيل تحركاته، ومخطّطاته لتطوير البلاد، والدفاع عنها، والذود عن كرامتها. ثمّ يدفن الصحيفة في صندوقه الذي بات يحتوي مئات الأعداد منها، ويعود إلى ألعابه اليوميّة، دون أن يتخلّى للحظة واحدة عن

حذره، وخوفه، وانتظاره اللحظة التي سيقتحم فيها رجال الاستخبارات منزله، ويحطّمون صندوقه، ويضربونه متّهمين إيّاه بالتخريب، والخروج عن القانون، وتهديده لأمن البلاد واستقرارها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الاستقالة

دخل بخطوات واثقة وابتسامة مشرقة، على غير عادته في الأيام العشرة الماضية. ألقى التحية على الموظفَين اللذين يشاركانه الغرفة. دنا من السيدة حياة، الثلاثينية، وأثنى على تسريحة شعرها بكثير من اللطف، ما دفعها لأن تشكره وهي تنظر إليه باستغراب. جلس خلف طاولته. رفع سماعة الهاتف طالباً فنجاني قهوة، له ولزميله الأستاذ قاسم، وفنجاناً من النيسكافيه للسيدة حياة، التي كانت، حتى اللحظة، تتبادل نظرات الاستغراب والتساؤل مع الأستاذ قاسم.

لم يقم بتشغيل جهاز الكومبيوتر، بل أخرج من حقيبته الجلدية عدداً قليلاً من الأوراق، وانهمك بالكتابة عليها تحت عيون زميليه المترقبة. وعندما انتهى من ذلك، عاد بظهره إلى الوراء متنهداً بارتياح.

– يبدو أنّ الأمور اليوم تسير على ما يرام.

قال الأستاذ قاسم مبتسماً، فابتسم له بامتنان مؤكداً على أنّ الأمور في أحسن حال.

– كنا بدأنا نخشى عليك.

قالت السيدة حياة، وهي تلاعب خصلات شعرها، فخورةً بإطرائه على تسريحتها الجديدة، التي صرفت يوم أمس ثلاث ساعات لاختيارها. فابتسم لها مطمئناً، ثمّ رفع أمامها ورقةً ، وهو يقول بصوت مفعم بالثقة:

– لقد حسم الأمر.

لم يفهم زميلاه ما يعنيه بذلك، لكنهما نهضا بسرعة مقتربين منه بعيون شاخصة إلى الورقة في يده. وحين أيقنا أنها تتضمّن طلب استقالته من العمل، لم يستطيعا إخفاء ذهولهما، واندفعا في الحديث إليه يحاولان ثنيه عن هذا القرار الخاطئ، شارحين له أنّ ما تعرّض له من ضغوطات خلال الأيام الماضية هي أمور تتكرر باستمرار بين الموظفين ورؤسائهم في العمل. وأنّ خلافه مع مديره، الذي تطوّر بشكل دراماتيكي، هو خلاف بسيط يمكن استيعابه، ولا يجوز أن يكون سبباً في قرار متهوّر كالاستقالة.

أنهيا كلامهما إليه وانتظرا ما سيقول، غير أنه اكتفى بابتسامة هادئة تشي بطمأنينة كبيرة يشعر بها. عندئذ لم تجد السيدة حياة بدّاً من التدخل بطريقة مختلفة، هي التي ما زالت تشعر بالامتنان لإطرائه على تسريحتها الجديدة. فأسهبت بالحديث عن مخاطر البطالة التي يعرّض نفسه لها إذا ما تشبّث بقراره، مؤكدة أنه لن يستطيع الحصول على عمل آخر بالسهولة التي يظنها،

طالبةً إليه، بنبرة محلل نفسي، أن يعتاد على مشكلات العمل، وأن يعمل على استيعابها، دون أن يسمح لها بالتأثير على حياته الشخصيّة، أو على مستقبله المهني.

تحدثت السيدة حياة مطولاً، دون أن تكفّ عن العبث بخصلات شعرها، وكانت كلما انتبهت لابتسامته الودود، وهو يصغي إليها، تشعر بواجب يدفعها لمواصلة الحديث، وإسداء المزيد من النصح. إلى أن توقفت عن الحديث فجأة، حين لم تعد تجد ما تقوله. عندئذ نهض عن كرسيه بهدوء، دون أن يتخلّى عن ابتسامة الطمأنينة المرتسمة على وجهه. حمل حقيبته الجلدية، وأمسك ورقة الاستقالة بثقة وهو ينظر إلى زميليه: – لن أسمح لأحد بعد اليوم أن يلقي أوامره عليّ. ولن أسمح لحاجتي أن تكون سبباً بقبول الإهانات، حتى وإن كان مطلقها يحمل لقب مدير أو وزير. أفضّل البطالة والعوز على أن أكون خانعاً لأوامر الآخرين.

قال ذلك بصوت واثق، دونما أدنى انفعال، محافظاً على ابتسامة يوزّعها بالتساوي على زميليه المحدقين إليه بكثير من التأثر، والتعاطف. ومن ثمّ شكر مشاعرهما تجاهه ومشى، بخطواته الواثقة ذاتها باتجاه باب الغرفة. وحين أرادت السيدة حياة اللحاق به، كمحاولة أخيرة لثنيه عن قراره، أمسك الأستاذ قاسم بها، مانعاً إيّاها عن ذلك، مؤكداً أنّه لا شكّ قد حسم أمره، ولن يثنيه عنه شيء.

رنين الهاتف الذي ارتفع على طاولته، قبل أن يجتاز باب الغرفة، دفعه للعودة سريعاً وهو يبتسم لزميليه ممازحاً:

– لتكن المرّة الأخيرة التي أجيب فيها على هذا الهاتف اللعين.

رفع سماعة الهاتف، مجيباً بصوت قويّ، ونبرة يمتزج فيها الهزء بالثقة المفرطة.

غير أنّ صوته لم يلبث أن تلاشى، ليكفهرّ وجهه، وتبدأ أوصاله بالارتجاف، تحت النظرات المستغربة لزميليه. راح يستمع إلى محدّثه صامتاً، وقد أخذت أنفاسه تتلاحق مصدرة صفيراً غريباً، قبل أن تنتهي المكالمة، فيضرب سماعة الهاتف على الطاولة بقوّة كبيرة، ويبدأ بتحطيم الأدوات الموجودة أمامه، وهو يصرخ بشكل هيستيري:

– لا يمكنكم فعل هذا. من تظنون أنفسكم؟ أنا من قرر أن يستقيل. كيف تسمحون لأنفسكم باتخاذ قرار إقالتي، وطردي من العمل؟ لن أسمح لكم أن ترموا بي إلى المجهول...

استمرّ صراخه زمناً بدا لزميليه طويلاً جداً، قبل أن ينهار على كرسيه، وتسقط من يده ورقة الاستقالة، التي خطّها بعناية حين قرّر أن يمضي، مختاراً، نحو مجهول يحفظ له شيئاً من كرامته المهدورة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطّريق إلى البيت

– أريد العودة إلى البيت.

– نحن في طريقنا إلى البيت يا بني.

أجاب الأب بصوت متهدّج. رفع الطّفل رأسه، وألقى نظرة على الطّريق، عبر السّور المعدنيّ للشاحنة الصّغيرة، عرف أنّ والده لا يقول الحقيقة، وأنّ الشّاحنة تسلك طريقاً معاكسةً لطريق البيت، لكنّه تجاهل ذلك محدّثاً نفسه: "لابدّ أنّني مخطئ، والدي يعرف أكثر"، ثمّ مدّ ذراعه الصّغيرة أسفل البطّانيّة المتّسخة، التي يحرص والده على تدثيره بها درءاً لصقيع شتائيّ يبدو قارصاً في هذه اللحظات، وأخرج دميته القماشيّة المبتورة الذّراع، واحتضنها بشدّة متّكئاً برأسه على صدر والده.

إلى جوارهما كانت المرأة المتّشحة بالسواد مستمرّة بصمتها الذي لم تتخلّ عنه، فهي لم تنبس ببنت شفة منذ بداية الرّحلة، ورغم أنّ الطّفل كان يسمع صوت أنفاسها الرتيبة، الثّقيلة، إلاّ أنّ ما كان يشغله هو عيناها الشّاخصتان نحو نقطة محدّدة دون أن يرفّ جفناها أبداً. نظر الطّفل مراراً إلى حيث تنظر علّه يعثر على ما يلفت انتباهها، لكنّه فشل بذلك.

هي الوحيدة من بين ركّاب الشّاحنة الخمسة التي لا تحمل معها طفلاً، فإلى جوارها تجلس امرأة شابّة، شاحبة الوجه، تهزّ بشكل متواصل طفلاً رضيعاً لا يتوقّف عن البكاء، بينما يجلس في الجهة الأخرى رجل يصطحب معه طفلةً لم تتجاوز الثالثة من العمر، وهي نائمة طوال الوقت، وقد خلع والدها سترته الشتويّة ودثّرها بها، دون أن يتوقّف لحظة عن مداعبة شعرها بأصابعه، بحركة رتيبة، تشبه بدقّتها رقّاص السّاعة. وقد انشغل الطفل لبعض الوقت بمراقبتها، منتظراً لحظةَ ستخطئ بها تلك الأصابع إيقاعها الرّتيب، لكنّ الملل أصابه قبل أن يظفر بتلك اللحظة. وكذلك شغله حديث العجوز الجالس بجوار الرّجل، والذي لم يكفّ عن الكلام منذ بداية الرّحلة، مع أنّ أحداً لم يكن يصغي إليه، باستثناء حفيدته ذات السنوات العشر، الجالسة قربه، مسندةً رأسها على كتفه، منشغلة بسحب خيوط ناعمة من سترته الصوفيّة، وتقطيعها.

– ليست المرّة الأولى. قبل عشرين سنة فقدت ولداَ وشقيقين في أحداث مشابهة، منذ ذلك الوقت ونحن نعيش مع الموت.

كان صوت العجوز واثقاً، ونبرته محايدة، لا أثر فيها للألم، أو الحزن، أو الشكوى. فقط كلمات باردة، كبرودة الموت الذي يتحدّث عنه دون انقطاع.

حاول الطّفل مراراً أن يتبيّن عيني العجوز، وتحديداً في اللحظات التي كان يشعر فيها أنّ شيئاً من التفاخر يشوب عباراته التي يروي بها فقدانه ولداً وشقيقين قبل عشرين سنة، وثلاثة أولاد، وحفيداً صباح هذا اليوم، لكن العتمة كانت حالكة بحيث حجبت عيني العجوز عن الطفل.

في بداية الرّحلة تابع الطّفل باهتمام رواية العجوز عن اليوم الذي اقتحم فيه مسلّحون منزله قبل عشرين سنة، وكيف قاموا بتحطيم الأثاث، وقتلوا شقيقيه اللذين كانا قد لجآ إليه بعدما دمّرت دبّابة منزل العائلة الكبير، ومن ثمّ قاموا بإطلاق النّار بشكل كثيف داخل المنزل، لتستقرّ عدّة رصاصات في صدر ولده، و لم يكن قد أتمّ العاشرة من عمره آنذاك. وكيف اقتادوه مكبّلاً بعد أن فشلوا بالعثور على بقيّة أفراد العائلة، الذين كانوا في تلك الأثناء يستقلّون شاحنة صغيرة تذهب بهم خارج حدود المدينة.

– تماما كحالنا في هذه اللحظات.

عندئذ استعاد الطّفل ما حدث صباحاً. حين كان في سريره يغطّ بنوم عميق، حالماً بقالب الحلوى، الذي وعدت والدته أن تعدّه اليوم بمناسبة ذكرى ميلاده الثامنة. فتح عينيه مراراً على صوت قصف الرّعد الشّديد، وفي كلّ مرّة كان يتذكّر قالب الحلوى، فيبتسم، وينغمس أكثر في دفء البطّانية النّاعمة، ويعود للنّوم مستمرّاً بالحلم. إلّا أنّه في استيقاظه الأخير انتبه إلى جلبة كبيرة تشوب صوت الرّعد، وقبل أن يتمكّن من مغادرة سريره، رأى باب غرفته يطبق بسرعة، وسمع صوت المفتاح يقفله.

خرج من سريره محتضناً دميته القماشيّة، المبتورة الذراع، ودنا من الباب منصتاً إلى الأصوات الغريبة التي تتحدّث في الخارج:

– قلْ أين هو وإلّا ستقتلون جميعاً.

قال صوت غريب.

– قلت لكم لا أحد هنا سوانا.

قال والده، وتلا ذلك صوت صفعة قوية، وشتائم كثيرة أطلقتها مجموعة من الأصوات الغريبة، لكنّ الخوف اعترى الطّفل، وجعله يحتضن دميته بقوّة أكبر حين سمع صوت والدته تتوسّل بصوت يشوبه البكاء:

– أرجوكم اتركوه، إنّه يقول الحقيقة.

ازدادت الجلبة بعد ذلك، وسمع الطّفل صوت أدوات تتحطّم، زجاج يكسر. دون أن تتوقف شتائم الأصوات الغريبة، وأسئلتهم عن شخص يبحثون عنه.

تذكّر الطّفل في هذه اللحظة خاله الذي جاء إليهم مساء، وكان يبدو متعباً، وتحدّث إلى والديه عن معركة كان يخوضها برفقة مجموعة من أصدقائه، وقال إنّه سيبقى هنا حتّى الصّباح.

– ألن تشاركني الاحتفال بعيد ميلادي؟

احتضنه الخال بحبّ، ونظر في عينيه، وهو يضغط على زنديه النحيلين بقوّة جعلت الطّفل يرتجف:

– سنشاركك كلنا، سيكون ميلادك احتفالاً لنا جميعاً.

قال الخال، فابتسم الطّفل سعيداً رغم ما أحسّه من غموض يشوب عبارة خاله.

– خمس ثوان فقط وإن لم يظهر ستكونون جميعكم أمواتاً.

قال صوت أحد الغرباء بنبرة قاسية، جافّة، وفي هذه اللحظة سمع الطفل صوت خاله للمرّة الأولى:

– أنا هنا.

تلا ذلك صوت خطوات تنزل الدّرج المفضي إلى العليّة الصّغيرة، ومن ثمّ صوت بنادق تستعد لإطلاق النّار، تلته صرخة والدته:

– لا... أرجوكم.

رشقات طويلة من الأعيرة النّارية بعد ذلك، وقبل أن يبدأ الطّفل بالبكاء والصّراخ الذي كان يعتمل فيه، فتح باب الغرفة، ودخل والده مسرعاً، فحمله مع بطانية قريبة، وخرج راكضاً به عبر الفناء الخلفيّ للمنزل.

ركض الأب طويلاً قبل أن يصل زقاقاً بعيداً تحيط به مجموعة كبيرة من الأبنيّة المدمّرة. هناك جلس منهكاً، يحتضن الطّفل، الذي لم يكفّ عن تكرار سؤاله وهو يسمع صوت الأعيرة النّاريّة المتواصلة في أرجاء المدينة:

– ما الذي يحدث؟

دون أن يحظى بأيّ إجابة من والده، الذي ظلّ يحتضنه بصمت، إلى أن حطّ الليل بعتمته الثّقيلة فوق المدينة. عندئذ نهض الأب، وعاد إلى الرّكض مجدّداً، ليصل مع طفله إلى الشّاحنة التي كانت على وشك الانطلاق، فصعدا إليها، واتخذا مكانهما بين ركّابها دونما كلمة لتبدأ الرّحلة التي لم تنته.

– قالت أمّي إنّها ستعدّ لي قالباً كبيراً من الحلوى، وسيكون بمقدوري أن آكل منه قدر ما أشاء.

– أجل يا صغيري، إنّها تعدّه لك الآن، ونحن في طريقنا إليها.

أجاب الأب بصوت متهدّج، وزاد من ضغط كفّيه على جسد الصغير الذي ابتسم ابتسامةَ اطمئنان باهتة، وهو يشعر بخيطٍ دافئ يسيل على خدّه مخفّفاً من الصّقيع الذي أصاب وجنتيه، أغمض الطفل عينيه مستشعراً لذّة الدّفء، بينما رفع الأب كفّه ليمسح دموعه التي انهمرت غزيرة فوق وجه ولده، وهو يتذكّر اللّحظة التي اندفعت فيها زوجته صباحاً لدى رؤيتها لشقيقها يغادر مخبأه، بعدما قرّر تسليم نفسه للمسلّحين حماية لعائلة أخته، ووقوفها أمامه حاجبة إيّاه عن فوهات البنادق الموجّهة إليه، فما كان من المسلّحين إلّا أن أطلقوا النّار عليهما معاً، واستمروا بإطلاق النّار بشكل عشوائيّ في أرجاء المنزل، ما سمح له ببرهة اندفع فيها نحو غرفة ولده، فحمله، وفرّ به هارباً.

– علينا ألّا نحزن. أبناؤنا الذين قتلوا أصبحوا شهداء، ولا شكّ أنّهم الآن في الجنّة. علينا أن نصلّي لله أن يحشرنا بجانبهم يوم القيامة. لم أكن أتوقّع أن أشعر مجدّداً بالافتخار والعزّة اللذين شعرت بهما قبل عشرين سنة، لكنّني اليوم، وأنا أرى أبنائي الثلاثة يسقطون شهداء، وكذلك حفيدي، حفيدي الذي لم يتجاوز الثانية عشرة، شقيق هذا الملاك الرائع.

قال العجوز، وهو يشير إلى حفيدته المستمرّة بسحب الخيوط من سترته الصوفيّة، وتقطيعها. ثمّ تابع:

– اليوم فقط، وأنا أراهم يعمّدهم الدّم، شعرت أنّ الأرض لم تعد تتسع لي، وأنّنا بتنا أقرب إلى السّماء، لقد ربحنا الجنّة دون شك.

نفخ العجوز صدره في هذه اللحظة، ورفع رأسه نحو السّماء، كأنّه يطاول به النجوم، وأحسّ الطّفل أنّ ثمّة ابتسامة عريضة قد ارتسمت على شفتي العجوز، فحاول جاهداً أن يخترق كثافة العتمة ليراها، لكنّه فشل بذلك، وانتبه إلى أنّ الطّفلة توقّفت عن العبث بخيوط السترة، ودفنت رأسها فوق ساقَي جدّها، وأجهشت ببكاء مرير راح صوته يرتفع رويداً رويداً، ما جعل الرّكّاب جميعا – بمن فيهم المرأة الصّامتة المتّشحة بالسّواد– يلتفتون إليها، ما أيقظ العجوز من نشوته، فرفع رأس حفيدته بهدوء، وهو يتحدّث بصوت واثق، وهادئ:

– لا يا صغيرتي. عليك ألّا تبكي. شقيقك غدا ملاكاً في السّماء الآن، وكذلك أبوك، وأعمامك. انظري جيداً، إنّهم يتوهّجون نوراً في غمرة الظلام.

قال مشيراً إلى النجوم التي ملأت السّماء، لكنّ الطّفلة لم ترفع رأسها، واستمرّ بكاؤها الأليم بالتّصاعد، ما أثار حنق الجدّ العجوز بعض الشيء،

فالتفت حوله، وقد شعر بأنّه يفقد الكثير من كبريائه الذي جاهد باستعراضه طوال الرّحلة، فحاول تعويض ذلك بمتابعة الحديث:

– لاشيء يمكن أن يمنحك السّكينة والطمأنينة مثل تقديم أبنائك قرابين على مذبح الوطن...

– كفاك غيّاً، واصمت.

بهذه الكلمات نطقت المرأة المتّشحة بالسّواد في هذه اللحظة، بصوتٍ آمرٍ، ونبرة حانقة طغت على صفير الرّيح، وصوت محرّك الشّاحنة. ما جعل الجميع يلتفتون إليها واجمين، فكفّت المرأة الشّابة عن هزّ رضيعها الذي سكت عن البكاء في هذه اللحظة أيضاً، كما توقفت أصابع الرجل المجاور لها عن مداعبة شعر طفلته التي استيقظت على وقع العبارة، ورفعت الحفيدة رأسها مبتعدة به عن جسد الجدّ العجوز الذي يحدّق ذاهلاً بالمرأة وهي تتابع حديثها بالنبرة ذاتها:

– أتظنّ أنّك الوحيد الذي فقد أبناءه؟ لقد فقدت عائلتي كلّها هذا الصّباح، طفلتي لفظت أنفاسها الأخيرة وأنا أحملها بين ذراعيّ. ليس بيننا من لم يفقد أحبّةً، ومهما كان الثّمن الذي سنحصل عليه جرّاء ذلك، فهذا لن يلغي أبداً حزننا الشّديد، ولن يكون تعويضاً لنا عن رائحة من فقدناهم. دع حفيدتك تبكي، لا شيء يغسل ألم الرّوح مثل البكاء. اخلع عنك هذا الكبرياء التّعس، وافسح المجال لدموعك أن تمحو عنك شقاء الفقد، ابكِ، ابكوا جميعاً. من فقدناهم يستحقون أن نبكيهم ما بقي لنا من العمر.

أنهت المرأة حديثها. فخيّم الصّمت على الجميع، وهم ينظرون إليها واجمين، استمرّ الصّمت لحظات بدت طويلة، استطاع خلالها الطّفل أن يتبيّن عينَي المرأة الواسعتين، وأحسّ أنّه بات يدرك إلام كانتا تشخصان طوال الوقت. وبعد هنيهة بدأ صوت أنين مكتوم يخترق جدار الصّمت بحدّة، وبهدوء رتيب تحوّل إلى بكاء مرير جعل الجميع يلتفتون إلى العجوز الذي غرق في نوبة من البكاء الهستيري، بكاء اعتمل في صدره منذ عشرين سنة. وماهي إلّا ثوان حتّى تحوّل الجميع إلى جوقة تبكي بنواح مرير، وشعر الطّفل مجدّداً بخيط دافئ يسيل على خدّه، فرفع رأسه نحو أبيه متسائلاً:

– لماذا تبكي يا أبي؟

احتضن الأب صغيره بقوّة، وقبل أن يستجمع نفسه ليجيب، ارتفع في الجوار صوت أعيرة ناريّة كثيفة توقّفت الشّاحنة على إثرها في الطّريق التّرابي الذي كانت تجتازه في هذه الأثناء، واختفى صوت البكاء ليحلّ مكانه ذعر أصاب الرّكّاب جميعاً.

– ماذا يحدث يا أبي؟

سأل الطّفل، فجذبه الأب إليه وهو يحاول أن يرسم ابتسامة على شفتيه:

– لا شيء يا صغيري، إنّها المفاجأة التي اتفقت مع والدتك على تحقيقها لك، ألم نعدك بألعاب ناريّة في يوم مولدك؟

– أجل، ولكن أين أمّي؟

– إنّها هنا، تنتظرك مع خالك، ستراهما بعد قليل، أصغ إلى أصوات الألعاب النّاريّة، واستمتع.

– لنذهب إلى البيت إذاً، لابدّ أنّ قالب الحلوى أصبح جاهزاً.

– سنذهب بعد أن ينتهي الاحتفال، سنأكل، ونرقص، ونمرح، ونضيء الشّموع.

ارتفع صوت الأعيرة الناريّة في هذه اللحظة، وازداد كثافة، وبدأ جميع الأطفال بالبكاء بينما انشغل الكبار بتهدئتهم كلّ على طريقته، مخفين ذعراً كبيراً بات يسكنهم بعد أن دوّى انفجار قريب من الشّاحنة، جعل الجميع يرفعون أصواتهم بصلوات متوسّلة لله أن يرحم أطفالهم.

– لا تخف يا بني، إنّه الاحتفال، اليوم ستتمّ الثامنة من عمرك، وحين تكبر ستذكر هذا الاحتفال بكثير من المرح، المدينة كلّها تحتفل بك الآن.

قال الأب وهو يجذب الولد إليه بقوّة تشبه القوّة التي يحتضن بها الولد دميته القماشيّة المبتورة الذراع.

أضاءت في هذه اللحظة مجموعة كبيرة من القذائف قريباً من الشّاحنة التي اهتزّت بقوّة، ومنعت الطّفل أن يعرب لوالده عن رغبته بإشعال فتيل إحدى تلك الألعاب النّاريّة. وحين أراد المحاولة من جديد سقطت قذيفة وسط الشّاحنة، وأردت كلّ من فيها، وعلى صدر الأب الميت، رقد الطّفل محتضناً دميته القماشيّة المشتعلة، وهو ينظر بعينيه المفتوحتين جيّداً، إلى السّماء، يتأمل نجومها المتوهّجة بفرح كبير بمناسبة مولده. في هذه اللحظة سمع صوت والدته تناديه:

– ادخل الآن. كلّ شيء أصبح جاهزاً.

اجتاز الطّفل العتمة نحو باب البيت، ودخل ليفاجأ بقالب من الحلوى لم يحلم به يوماً، وحول الطّاولة كان والداه يقفان مع خاله وجدّيه، وهم يغنّون له بفرح كبير أغنية الميلاد، وقد أضاءت الغرفة مجموعة كبيرة من الشّموع الملوّنة. بدأ يأكل الحلوى بنهم ومتعة كبيرين، وهو يصغي إلى ضحكات أفراد عائلته، وإلى أصوات الألعاب النّاريّة، التي لم تتوقّف عن الابتهاج بميلاده إلّا وهو

يغمض عينيه مبتسما، راقداً بسلام فوق جثّة والده، وعلى صدره يرقد رماد دمية قماشيّة، كانت فيما مضى مبتورة الذّراع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نيرفانا

جلس يرشف قهوته بهدوء، وهو لا يزال مسكوناً بالحلم، يفكر ما الذي دفع طيفها أن يزوره في نومه بعد كلّ هذه السنين. على شفتيه كانت ترتسم ابتسامة طفيفة وهو يستعيد ملامحها، لكنها لا تلبث أن تتلاشى، ويتجهّم وجهه حين يذكر أنّه حتى في الحلم، وبعد كلّ هذا الوقت، لم يستطع سماع صوتها. كان متأكداً أنّه رآها تقف أمامه بكلّ بهائها تتحدّث محرّكة شفتيها بهدوء. لكنه لم يسمع صوتها. إذ كيف له أن يسمع في الحلم صوتها الذي لم يعرفه يوماً؟!

سنوات طويلة مرّت منذ ذلك اليوم. حين انتظرها من جديد، ولم تأتِ، فالتحف معطفه جيّداً، واستدار خائباً، تلفحه ريح الخريف الجافّة، مسببة صقيعاً لأذنيه، وجفافاً قاسياً لشفتيه المتشققتين.

إنّه اليوم العاشر على التوالي الذي ينتظرها فيه عند الناصية ذاتها، فيمضي الوقت بطيئاً، وتعبر الجموع الكثيفة الشارع، ليبقى وحيداً. ولا تأتي.

في المنزل خلع معطفه دون اكتراث، وتركه يتكوّم عشوائياً على أرض الغرفة. وارتمى على الأريكة مغمض العينين يحاول استعادة صورتها. التقاها، مصادفةً، أوّل مرّة، حين كان عائداً من عمله الشّاق في إحدى ورش البناء، بملابسه المتّسخة، والغبار الذي غطّى ملامحه. يمشي بخطوات سريعة لاكتساب أطول وقت ممكن من استراحة الغداء، في ذلك الشارع الضيّق، وبينما كان يجاهد ليشقّ طريقه وسط الزحام الخانق، لفحته نسمة باردة عطرة، جعلته يتسمّر تماماً. التفت واجماً إلى مصدر الرائحة، فوجدها تعبر بمحاذاته. فتاة لم يرها من قبل في هذا الشّارع الذي تعوّد اجتيازه كلّ يوم في مثل هذا الوقت منذ سنوات. لم يستطع تبيّن وجهها، لكنّه لاحق قدّها بعينين ذاهلتين، وقلبٍ واجفٍ. كانت بمشيتها المتعجّلة، وقدّها الممشوق، وشعرها المنسدل على كتفيها باسترسال، تشبه فتيات الحكايات الخرافيّة. ذكّرته صورتها وهي تخرج من بين الجموع بمشهدٍ ساحرٍ من فيلم سينمائيّ تظهر فيه فتاة أسطوريّة كأنها تخرج من الحلم. راقبها طويلاً من مكانه غير مكترثٍ بالأجساد التي تلطمه بين الحين والآخر. وحين تلاشت صورتها تماماً شهق شهيقاً طويلاً، ليكتشف أنّ رائحتها رسخت في المكان.

في اليوم التالي لم يذهب إلى العمل. ارتدى ملابس نظيفةً، ورشّها برذاذ من عطره الرّخيص، وقصد الشّارع في التوقيت ذاته، ساعة استراحة الغداء في المدينة. وسط الزّحام وقف يرقب النّاصية بشغفٍ كبير، لم ينتظر طويلاً حتّى ظهرت وهي تشقّ طريقها بين الجموع المتلاطمة، بالخطوات المتعجّلة ذاتها. ورغم أنه في اليوم السّابق لم ينتبه إليها إلا وقد تجاوزته ورحلتْ. غير أنّ دقّات قلبه التي تسارعت لحظة ظهورها جعلته يتعرّف إليها سريعاً، وقد

تبدّلت هيئتها بعض الشيء، فهي الآن ترتدي معطفاً سميكاً، وترفع شعرها بواسطة ربطة مطّاطية سوداء، وقد دسّت كفيها في جيبَي المعطف اتقاءً للبرد. تسمّر مكانه يرنو إلى وجهها يدنو منه بسرعة. تمعّن فيه دون أن يرفّ له جفن، ودون أن يسمع من الصخب المحيط به غير صوت خفقات قلبه التي تحوّلت ضجيجاً يصمّ أذنيه. حاول التقاط تفاصيل الوجه دفعة واحدة، تبيّن سمرة بشرتها البرونزيّة، وعينيها الواسعتين بنظرتهما الجريئة الواثقة، وشفتين تشبهان لمسة الريشة الأخيرة في لوحة تشكيليّة لا يكتمل بناؤها ومعناها إلا بها. أحسّ بهالة باهتة تحيط بها، وتصيبه بدفء غريب. ومن ثمّ لفحته النّسمة الباردة العطرة ذاتها، وهي تتجاوزه. حين أفاق من نشوته كان وحيداً في الشّارع.

بعد ذلك وإثر مشاحنات طويلة، وبعد تخلّيه عن جزء من أجره اليوميّ، استطاع الحصول من ربّ عمله على ساعة استراحة إضافية، يتمكن خلالها من العودة السّريعة إلى البيت، فيغتسل، ويرتدي ملابس نظيفة معطّرة، ويعود إلى الشّارع لملاقاتها. دام الأمر أسبوعاً إلى أن تجرّأ، وقرّر التحدّث إليها.

وقف مستجمعاً شجاعته، ضاغطاً كفّيه داخل جيبي المعطف بقوّة، محدّقاً فيها بإصرار وهي تدنو بالاستعجال ذاته. شهق شهيقاً طويلاً حين أصبحت على بعد خطوة منه، وأحسّ عصارة حامضة تندفع من معدته بقوّة لتستقرّ في حلقه لحظةَ نظرت إليه مباشرة. أغمض عينيه لبرهة، وفتحهما بعد أن تجاوزته بسرعة.

لم ينم تلك الليلة. ظلّت نظرتها شاخصة أمامه تضيء له فجوة واسعةً من حلم مظلم. في الأيام التالية تجرّأ أن يدنو من النّاصية، ويراقبها عبر الواجهة الزّجاجيّة لمحلّ بيع الأحذية الذي تعمل فيه. كان يقف ساعة كاملة أمام الزّجاج. يراقبها وهي تنسّق الأحذية، وتتحدّث إلى الزبائن بلطفٍ، دون أن يتمكن من سماع صوتها، وترسم على وجهها ابتساماتٍ متكلّفة تحاول إقناع الزبائن بالشّراء. وما أن تحين ساعة الغداء، وترتدي معطفها، حتى يعود إلى مكانه الأوّل ينتظر وصولها ليتحدّث إليها. تصل. تنظر إليه. تتجاوزه. ويعود خائباً. حين انتبه، بعد وقت طويل، إلى أنّ خطواتها غدت بطيئةً بعض الشيء وهي تدنو منه متجنبة النظر إليه مباشرة، مكتفية بابتسامة صغيرة ترتسم على شفتيها الدّقيقتين، فهم في ذلك دعوتها إيّاه ليبدأ حديثاً باتت هي تنتظره بشغف. وقف طويلاً أمام المرآة. أنّب نفسه على تردّده غير المبرّر. استجمع شجاعة سنواته كلّها، وعاد إلى الشّارع بخطوات واثقة، ونظرة يقينيّة. وقف وسط الشّارع شاخصاً إليها وهي تدنو. اتّسعت ابتسامتها حين رأت الإصرار الذي يغلّف وجهه. تباطأت خطواتها تأكيداً على استعدادها لبدء الحديث، وحين

تجاوزته ببطء شديد، لم تكن شجاعته قد أسعفته بأكثر من أن يخرج كفّه المقبوضة من جيب معطفه، ويمسح بها بعض قطرات العرق الباردة التي أندت جبينه. لم يرها بعد ذلك قطّ. عاد إلى الشّارع مراراً، لكنّها لم تأتِ. دنا من محلّ بيع الأحذية ليجد فتاةً أخرى تقوم بعملها. أحسّ بمرارة الخذلان دون أن يكفّ عن المجيء كلّ يوم في السّاعة ذاتها. يقف وسط الشّارع يرنو إلى النّاصية، يتحمّل لطم الأجساد المسرعة له، وبعض الشّتائم الصغيرة التي يكيلها له العابرون. وحين يغدو وحيداً يعود خائباً، ينتظر اليوم التالي بفارغ الصّبر. شهرٌ مضى منذ ذلك اليوم. وها هو يقف وسط الصّقيع، يمعن في النّاصية التي ستأتي عبرها. تتدافع الأجساد أمامه وجواره، وترتطم به دون أن يرفّ له جفن. صوت خرير مياه تتدفق باردةً سمعه في اللحظة التي تسارعت فيها نبضات قلبه كما لم يحدث من قبل. أندت جبينه قطرات عرق باردة حين رآها تلوح في الأفق بمشيتها الواثقة ذاتها، ونظرتها الجريئة، وابتسامة واسعة ترتسم واضحة على شفتيها. خطا نحوها بهدوء الواثق، وعلى مسافة خطوتين منها وقف معترضاً طريقها، فوقفت تحدّق إليه مبتسمة بسعادة.

– أين كنتِ؟

– أنتظركَ.

– لكنّي أجيء كلّ يوم.

– أكره الشّتاء. إنّه بارد.

حدّق طويلاً في عينيها الضّاحكتين، قبل أن تتحرك شفتاه المتشققتان بهدوء، بعد شهيق طويل:

– أحبكِ.

اتّسعتْ ابتسامتها لتغدو حلماً جديداً، ولمح في عينيها بريقاً فضيّاً يشبه ضوء القمر السّابح فوق ماء البحر في ليلة صيفيّة هادئة. أغمض عينيه بهدوء، وتنفس بعمق مالئاً رئتيه برائحتها الباردة العطرة. ثمّ فتح عينيه على رذاذ ناعم ينهمر هادئاً. كان وحيداً في الشّارع المقفر. دسّ كفّيه الباردتين في جيبَي المعطف، استدار ببطء، وعاد يمشي بخطوات خائبة، يتلبّسه شعور ممضّ بنشوة كاذبة.

رشف رشفته الأخيرة من قهوته باردةً. ثمّ أغمض عينيه محاولاً استعادة طيفها كما رآه في الحلم، علّه يتمكّن، ولو لمرّة واحدة، من سماع صوتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

القنّاص

كان صوت العكّازين وهما يرتطمان بالإسفلت قويّاً. سمعه ممزوجاً بضحكات الأطفال الصّاخبة وهم يبتعدون قبل أن يصرخ هو متألّماً جرّاء اصطدام رأسه بحجارة الرّصيف. أحسّ بدوارٍ مباغت أفقده وعيه لبرهة، قبل أن يستعيده على صوتِ عجوزٍ يلاحق الأطفال المبتعدين بسيلٍ من الشّتائم يزيد من صخب ضحكاتهم وفجورها. وما هي إلّا لحظات سريعة حتّى شعر بدفء كفّين عجوزتين معروقتين تمسحان وجهه برفق. فتح عينيه ليبصر، عبر ضباب خافت يغشّيهما، وجه العجوز الممسك به بحنوّ يساعده على الجلوس.

– هل تألّمت كثيراً؟

– لا بأس. ألمٌ خافت في مؤخّرة الرأس فقط.

– الحمد لله. ليس ثمّة دمٌ نازف. أولاد الكلب. جيل أزعر مو متربي ببيت أهلو.

عرف الشّاب صوت العجوز. مسح عينيه ليزيل الغشاوة وينظر مجدداً إلى وجه العمّ ابراهيم. الوجه الذي لطالما أحبّه، وشعر بالألفة مع ملامحه الطيّبة، وتجاعيده التي تحكي بصمت حكايات تعبٍ طويل.

– شكراً عمّ ابراهيم.

– استرخِ. سأحملك إلى الكرسيّ وأعدّ لك صحناً من الفول السّاخن.

حمل العجوز العكّازين، وبذراعه الأخرى رفع الشّاب عن الأرض ممسكاً به من تحت إبطه ناحيةَ السّاق المبتورة، ليقفز الشّاب على ساقه الوحيدة عدّة خطوات باتجاه العربة القريبة، حيث وضع العجوز كرسياً بمحاذاتها ساعد الشّاب للجلوس عليها، واتّجه إلى عربته.

يعرف الشّاب العمّ ابراهيم منذ سنوات، وما زال يذكر رؤيته له أوّل مرّة. كان الوقت شتاء كمثل هذه الأيّام، وكان هو يفترش الرّصيف متدثّراً بمعطفٍ بالٍ وغير قادرٍ على النّوم بسبب الجوع. وبينما كان يعتصر أمعاءه الفارغة رأى أمامه صحناً من الفولِ السّاخن تعبق منه رائحة البهار شهيّة، فمدّ يده بهدوء وتناول الصّحن متمعّناً بوجه العجوز الذي لم ينطق كلمةً، واكتفى بابتسامة طيّبة وهو يقدّم له الصّحن ويعود إلى عربته المركونة عند ناصية الشّارع. منذ ذلك اليوم غدت عربة الفول بالنسبةِ إليه أشبه ببيت يتوق إليه كلّ ليلةٍ، فيدنو منها بعد أن يرحل العمّ ابراهيم تاركاً إيّاها مربوطة بسلسلةٍ معدنيّة إلى عمود الكهرباء القريب، فيلتحف نفسه في فيئها الحميم وينام.

عاد العجوز إليه بصحنٍ مليء بالفول السّاخن المشبع بالبهار وحمض الليمون. قدّم الصحن إليه وهو يتحسّس رأسه.

– هل ما زال يؤلمك؟

– قليلاً. شكراً عمّ ابراهيم

لم يسمع العجوز شكره، إذ كان يلاحق بعينيه الغاضبتين زمرة الأولاد العائدين بضحكهم الصّاخب يشيرون إلى الشاب وهم يضحكون، بعدما نجحوا بتسديد ركلة إلى عكازه تسبّبت بسقوطه. لم ينتبه الشاب المنهمك بالأكل إليهم إلّا حين نهض العمّ ابراهيم فجأة وراح يقذفهم بالحصى ليبتعدوا وهو يمطرهم بالشّتائم.

– اتركهم عمّ ابراهيم. إنّهم أولاد لا يدركون ما يفعلون.

– أولاد شوارع. بلا تربية.

انتبه الشّاب إلى أنّها المرّة الأولى التي يسمع فيها صوت العمّ ابراهيم وهو يتحدّث بشكل طبيعي، حيث يختلف صوته اختلافاً جوهريّاً عنه حين ينادي: "قرّب ع السّاخن"، الجملة التي كان هو يطرب إليها حتّى بات يردّدها بذات النّغمة كلّ يوم وهو يغمض عينيه بجوار العربة، كأنّما يهدهد نفسه بها ليتمكّن من النوم. راح الشّاب يمعن النّظر في ملامح العمّ ابراهيم الذي اتّجه إلى عربته مجدداً ليملأ صحنين من الفول لزبونتين عابرتين. أحسّ بالانجذاب لحركته ولابتسامته الطيّبة، ورغب أن يعود إليه مباشرة قبل أن يفقد السيطرة على نفسه ويغرق ببكاء يعتمل في صدره. اغرورقت عيناه بالدموع، وقبل أن تطفر منهما كان العمّ ابراهيم يجلس إلى جواره متحسّساً مؤخّرة رأسه:

– هل زال الألم؟

أومأ الشاب برأسه إيجاباً غير قادر على الكلام.

– لم أسألك يوماً عن حالك. أين عائلتك؟ ما الذي جعلك على ما أنت عليه؟

أيقظ سؤال العمّ ابراهيم الشّاب من شروده في التجاعيد التي تملأ وجهه. وراح يستعيد في رأسه تفاصيل ذكرى قديمة أدمن استعادتها كلّ يوم في محاولة منه للتعايش معها كحقيقة لا يمكنه تغييرها. نظر بإمعان إلى عينَي محدّثه المفرطتين بالحنوّ عليه في هذه اللحظة، وبصوت متهدّج راح يسرد حكايته كمن يحدّث نفسه:

– لا عائلة لي. فقدت والديّ في الحرب قبل عشرين سنة. يومٌ واحد كان بمثابة فاصلة بين حياتين عشتهما، عشر سنوات من الطفولة أنهتها رصاصةٌ، لأبدأ بعدها حياة أخرى طويلة وتبدو بلا نهاية.

أشار العجوز لزبون دنا منه طالباً صحناً من الفول أن يرحل دون أن يتحدّث إليه كي لا يقطع على الشّاب استرساله بحكاية يتوق لسماعها.

– كان يوماً من أيّام الحرب الطّويلة. كنتُ مختبئاً في البيت مع والديّ بينما أصوات القذائف تدوي في الخارج. كنتُ خائفاً. أبكي. يهدهدني أبي محاولاً طمأنتي. سألته: ما الذي يحدث؟ أجابني بصوت مخنوق: إنّها الحرب. لم أفهم ما تعنيه الكلمة لكنني شعرت بالذعر فعدت للبكاء. عندئذ قرّرت والدتي أن تحضّر لي يانسوناً ساخناً علّني أشربه وأنام، فاتّجهت إلى المطبخ الذي لم تعد منه، وكان طرف ثوبها، وهو يختفي خلف الباب، آخر ما رأيته منها، حيث دوى انفجار هائل بعد ذلك جرّاء قذيفة أصابت المطبخ، لأرى نفسي في الشارع يحملني والدي راكضاً بسرعة كبيرة، مبتعداً عن البيت الذي راحت القذائف تتساقط بغزارة فوقه، وفوق البيوت المجاورة. اجتاز أبي الشّارع الطّويل بخطوات متسارعة تتناسب مع صراخي المذعور، قبل أن يتوقّف فجأة ويسقط أرضاً مضرجاً بالدم. استلقيت فوقه مذعوراً أبكيه متمرّغاً بدمه الدافئ المتدفّق من ثقب كبير في صدره. كان يلفظ أنفاسه ممزوجة بكلمة واحدة: اهرب... اهرب. أطلقتُ ساقيّ للريح، ورحت أعدو دون وجهة محدّدة، وقبل أن أغادر الشّارع شعرت بشيء ساخنٍ يخترق ساقي فسقطت أرضاً. يوم واحد فقدت فيه عائلتي وساقي تحوّل بعد ذلك إلى يوم طويل ما زلت أعيشه حتّى اللحظة. أظنّه كان قنّاصاً ماهراً ذاك الذي أردى أبي، وأصاب ساقي الصغيرة وهي تعدو بسرعة كبيرة.

أنهى الشاب حكايته ورفع وجهه ليجد العمّ ابراهيم يحدّق به وقد اتسّعت حدقتاه. ابتسم الشاب بأسى وهو يحدق بتلكم العينين:

– في نظراتك ما يشبه حنوّ نظرات أبي. أشكرك عمّ ابراهيم.

قال ذلك، والتقط عكازيه الموضوعين بجواره، وبصعوبة نهض وسار عدّة خطوات، ثمّ جلس مستنداً إلى الجدار بجوار العربة. التحف معطفه جيّداً، وقبل أن يغمض عينيه نادى على العجوز:

– عمّ ابراهيم. هل سبق لك أن أطلقت النّار على أحد؟

التفت العجوز إليه، لكنّ العتمة منعته هذه المرّة من رؤية نظرته، وسمع صوته من جديد عجوزاً متهدّجاً وهو يجيبه:

– لم أكن قاتلاً في يوم من الأيام.

ابتسم الشاب بطمأنينة، وأغمض عينيه بهدوء، بينما رائحة الفول تملأ منخريه دفئاً وسكينة.

على مسافة خطوات قليلة كان العجوز لا يزال جالساً يحاول اختراق العتمة لتبيّن ملامح الشاب النائم، وفي رأسه تدور صورٌ وأصواتٌ قديمة لطالما عمل على تناسيها. لكنّها عادت الآن جليّة، وزادتها أنفاس الشاب الحارّة وهو يتحدّث وضوحاً. عشرون سنة مضت وها هو العمّ ابراهيم يرى نفسه ذلك الرّجل قويّ البنية، يتمترس مع بعض رفاقه على سطح مبنىً مرتفع أمام بندقيّة قنّاصة يتناوبون على عدستها. وبينما هو يلصق إحدى عينيه بتلك العدسة سمع صوت أحد رفاقه يقول:

– إلى اليسار. هناك من يتحرّك.

استدار ابراهيم بعدسته يساراً ليرى رجلاً يركض بسرعة حاملاً طفلاً يبدو في العاشرة من العمر، وقبل أن يفكّر بشيء سمع صوت رفيقه:

– ماذا تنتظر؟

ضغط على الزناد مباشرةً مردياً الرجل بعد أن أصابه في صدره. ارتفع هتاف الرفاق من حوله مهللين لنجاحه بالاصطياد. لم يكترث لهم وظلّ محدّقاً بعدسته وقد رأى الطّفل ينتحب فوق صدر والده.

– إلام تنظر؟ لقد نجحت.

سأله أحد الرفاق وهو يهزّ كتفيه مشجّعاً.

– الطفل. إنّه هناك.

قال ذلك، ورأى الطّفل يبتعد راكضاً.

– أراهنك على إصابة الطّفل في ساقه الآن. إن فعلتها ستكون هذه كلّها لك.

قال أحد رفاقه وهو يرفع أمامه قطعةً كبيرة من الحشيش الذي يدخنونه طيلة فترة تمترسهم. ضحك الرفاق وهلّلوا للرهان. عاد ابراهيم إلى عدسته حين كان الطفل يوشك أن يغادر الشّارع ويختفي، وبلحظة خاطفة عاجله برصاصة استقرّت في فخذه الأيسر. ارتفعت صرخات الفرح من الرّفاق. وحصل ابراهيم على قطعة الحشيش كاملة.

انتبه العجوز إلى أنّ الوقت قد تأخّر، التفت ناحية الشّاب فرآه يغطّ بنوم عميق ملتحفاً معطفه وإلى جواره يرقد العكازان، بينما تتمدّد ساقه وحيدة على حجارة الرّصيف البارد. حاول العجوز النهوض لكنّ ساقاه خذلتاه، فأوشك على السقوط. عندئذ استلقى على الرّصيف مغمضاً عينيه على نظرة ثاقبة لا يمتلكها غير قنّاص محترف، ناسياً عربته والنّارُ موقدةٌ فيها تحت إناء يغلي ويتصاعد منه بخار الفول دافئاً في هذه الليلة الباردة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

اللثغة

لم يستطع التلاميذ التماسك، وانطلقت ضحكاتهم صاخبة بعدما فشلوا في كتمانها أكثر من برهة قصيرة، فلثغة المدرّس، واستبداله حرف الراء بحرف الغين وهو يقول لهم، صباح الخير، كانت كافيةً لتخرجهم عن خوفهم وتوجّسهم اللذين شعرا بهما حين دخل المدرس القاعة بقامته الطويلة، وكتفيه العريضتين، وشاربيه الكثين، ونظّارته الطبيّة السميكة العدسات. حينها ساد القاعة صمت مطبق، بينما مشى المدرّس بخطوات متأنيّة نحو طاولته، وبعد أن وضع دفتره وعصاه فوقها نظر إلى عيون الصغار المحدقة به بتوجّس، ثمّ قال بصوت غليظ: صباح الخير.

لكنه لفظ الرّاء غيناً، فسمع الأولاد: صباح الخيغ، ولم يتمالكوا أنفسهم، وانطلقت حناجرهم بضحك صاخب، فما كان من المعلّم إلا أن أخفض رأسه خجلاً، واستدار ليبدأ الكتابة على السبورة بصمت. هو الذي خبر هذا الموقف منذ بدأ عمله في التدريس قبل سنوات، والذي اعتاد أن يضحك الأولاد من طريقة نطقه بداية كلّ فصل قبل أن يعتادوها. غير أنّ ما حدث في هذه القاعة كان مختلفاً، فالأولاد لم يكفّوا عن الضحك طوال السّاعة، كما أنّه سمعهم في البداية يقلدّون طريقة نطقه، ساخرين منها بأصوات خفيضة راحت ترتفع تدريجياً حين لم يعرها انتباهاً، إلى أن وصلت حدّ المجاهرة، وكأنهم يتقصّدون أن يسمعهم، الأمر الذي زاد من خجله وارتباكه، وراح يشرح درسه بصوت مرتفع، وبكلمات متلاحقة وهو يدرك تماماً أنّ أحداً من الأولاد لا يصغي إليه، إنهم فقط ينتظرون أن يتخلّل كلماته حرف الراء ليرتفع صخب ضحكاتهم أكثر. وبتقدّم الوقت تجرأ بعضهم على الوقوف فوق كراسيهم مقلّدين حركات أستاذهم، وطريقة نطقه لتحفيز رفاقهم على مزيد من الضحك.

لم ينم المعلّم تلك الليلة، ظلّت ضحكات الأطفال وسخريتهم تحاصره طوال الليل، حتى أنه أجهش بالبكاء مراراً وهو يتذكّر نكاتهم اللاذعة. ندب حظه العاثر الذي جعله عرضة للسخرية منذ طفولته، وحوّله إلى رجل متردّد، وجبان، يخجل حتّى أن يطالب بحقّه كي لا يثير ضحك الآخرين. لكنّه مع انبلاج الفجر راح يختلق الأعذار لأولئك التلاميذ، مرجعاً شقاوتهم لرغبتهم الغريزية في اللعب، ودهشتهم الطفوليّة أمام المختلف، مؤكّداً لنفسه أنّ كلّ ذلك سيزول حين يعتادون طريقة نطقه، كما يحدث مع غيرهم من الأولاد كلّ عام. حين أقنع نفسه بذلك استطاع فقط أن يغمض عينيه ويخلد للنوم.

لم يكن اليوم التالي أفضل حالاً، فالأولاد استمروا في سخريتهم من المعلّم طوال الوقت، وتمادى البعض منهم وصاروا يغادرون القاعة دون إذن منه،

وإذا ما توجّه إلى أحدهم بالسؤال عن سبب خروجه، أو الاعتراض عليه، ما كان الطفل يحتاج غير الإلتفات إليه وطلب الإذن بطريقة ساخرة، وبكلمات يحرص أن يتخللها حرف الراء مراراً، فيصمت المعلم مخفضاً رأسه، ويعود لمتابعة درسه وسط ضحكات التلاميذ التي لا تتوقف.

حافظ المعلم طيلة الأيام التالية على كتمان غيظه، مكتفياً بشعور الألم الذي يتآكله، مراهناً على أنّ الوقت سيكون كفيلاً بإنهاء تلك الحالة، وأنّ الأولاد لا بدّ سيعتادون طريقة نطقه ويكفّون عن إهانته. لكن رهانه كان خاسراً، فالأيام التالية لم تحمل غير مزيد من الألم، حيث بلغت سخرية الأولاد منه حدوداً غير مسبوقة، إذ تجرأ ثلاثة منهم على الصعود إلى طاولته، وراحوا يلقون خطباً لم يكتفوا فيها أن يلثغوا بحرف الراء فقط، بل تعدّوا ذلك إلى كلّ الحروف الأبجدية، تاركين رفقاهم في القاعة يغرقون في الضحك. آنذاك فقد المعلم قدرته على الاحتمال، فغادر المدرسة سريعاً، ووصل بيته شبه منهار يبكي طيلة الوقت دون توقّف.

مساءً هدأ المعلّم قليلاً، بعدما أيقن أنّ هذه الزمرة من الأولاد تختلف عمّن عرفهم سابقاً، وأنّهم لن يتخلوا بسهولة عن سخرية غدت شغفهم الذي يتوقون إليه كلّ يوم. عندئذ حسم أمره، وأخرج من مكتبته كلّ معاجم اللغة التي يمتلكها، وعكف على دراستها بالتفصيل، مدوّناً على دفتر خاص كلّ المرادفات المتوافرة لكلّ كلمة يتخللها حرف الرّاء. خمسة أيام متواصلة، لم يغادر فيها المعلّم منزله، بينما الأولاد في المدرسة يتململون ضجرين، مشتاقين الى تسليتهم الجديدة، خائفين أن يقرّر المعلم ترك المدرسة فيفقدوا بذلك تسليتهم دون رجعة.

خمسة أيّام طويلة. مملّة للتلاميذ، مرهقة للمعلم. انتهت أخيراً حين وصل الأطفال إلى قاعتهم ليفاجأوا بالمعلّم جالساً خلف طاولته، عابساً، متجهم الملامح، يمسك عصاه وينقر بها على الطاولة بإيقاع رتيب. تبادل الأولاد الابتسامات الخبيثة والهمهمات الخافتة، وقد انفرجت أساريرهم استعداداً لجولة جديدة وطويلة من الضحك. وسارعوا للانتظام في مقاعدهم بانتظار عبارة "صباح الخير"، التي ستفتح لهم بوّابة الضحك. لكن خيبتهم كانت كبيرة، ممزوجة بشيء من الذهول حين قال المعلّم بصوت غليظ وجاف: عمتم صباحاً.

ارتبك الأولاد عندئذ، وتبادلوا نظرات الحيرة والاستغراب، واستطاع المعلّم أن يقرأ خيبتهم وذهول عيونهم الصّغيرة، وكادت ترتسم على شفتيه ابتسامة الانتصار، إلّا أنّه استدرك نفسه بسرعة، ونهض مباشرة ليبدأ شرح درسه بطلاقة، وبجمل خالية تماماً من حرف الرّاء. الحرف الذي كتم التلاميذ أنفاسهم بانتظار أن يلفظه مدرّسهم ليكون بمثابة المفتاح إلى تسلية طال

انتظارها. غير أنّ المعلّم أنّهى درسه متجنّباَ الحرف الذي أثقل عليه منذ بداية نطقه وحتى اليوم.

عادت السّاعة الدراسيّة منذ ذاك اليوم بمثابة كابوس ثقيل على التلاميذ، المذعورين طيلة الوقت من قسوة المدرّس، وعصاه الحاضرة عند أدنى هفوة منهم، والتي ما عاد ينام إلّا قابضاً عليها، متأهّباً لمن يجرؤ على السخرية منه حتّى في الحلم، والتي باتت هاجساً مرعباً للتلاميذ، بعدما عرفت أيديهم الصغيرة لسعاتها المؤلمة.

اختلفت مشية المدرّس آنذاك، وأصبحت خطواته واثقةً ينقلها بخفّة، بظهرٍ مشدود، ورأس مرفوع، وهو يضرب العصا على ساقه أثناء السير بحركةٍ رتيبة، بعدما كان سابقاً يكتفي بحملها تحت إبطه مدسوسة بين كتبه وأوراقه، حتّى أنّه، في يوم الاحتفال بإحدى المناسبات الوطنية، لم يتخلّ عنها حين صعد إلى المنبر لإلقاء كلمة الهيئة التدريسية، وبعدما كان التلاميذ في الساحة يتململون في وقفتهم، ويصدرون الهمهمات، والضحكات المكتومة أثناء إلقاء المعلمين لخطبهم، فإنهم كتموا أنفاسهم لحظة اعتلى المدرّس المنبر وراح يلوّح بعصاه وهو يخطب بطلاقة، خطبته التي أمضى أيّاماً لإعدادها وحفظها، وجعلها خالية تماماً من حرف الراء المشؤوم. مرّت الدقائق بطيئة بانتظار أن ينهي المعلّم خطبته التي لم يسمع منها التلاميذ أيّة كلمة، منشغلين بملاحقة عصاه التي يلوّح فيها بانفعال راح يتصاعد بشكل متواتر تماشياً مع العبارات الحماسيّة التي اختارها، ليبلغ ذروته مع العبارة الأخيرة قبل أن يبدأ بالهتاف بشعار الحزب، الذي استعدّ التلاميذ لترديده من بعده، لكنّهم لم يفعلوا، إذ أفلتت منهم الضحكات صاخبة مع لفظ المدرّس لآخر كلمة من كلمات الشعار، والتي كانت تنتهي بحرف الراء، ولا إمكانية لاستبدالها، فسمع التلاميذ لثغتهم التي اشتاقوها، وانفجروا يضحكون كشياطين صغيرة لا قدرة لأحد على إسكاتها، لتنتقل عدوى الضحك إلى الجهاز التدريسي، وضيوف الاحتفال، فيشعر المدرّس بأنّه بات عارياً تماماً فوق المنبر، ما دفعه لإخفاض رأسه تجنباً للنظرات الساخرة، وتراخت ذراعه لتسقط عصاه أرضاً، وينسحب من المكان بهدوء، بخطوات مرتعشة وقامة منحنية، وهو يغطي أذنية بكفيه، متجنباً قسوة الضحكات التي لاحقته حتى بوابة المدرسة، التي غادرها للمرّة الأخيرة، دون أن يعرف أحد مصيره، أو يسمع عنه شيئاً بعد ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

النظّارة

من الحانة خرج الكاتب مع أصدقائه فرحين مخمورين، يتضاحكون في الشارع الخاوي إلا من بعض القطط والكلاب الشاردة. نظّارة الكاتب الشمسيّة التي رفض التخلّي عنها طيلة السهرة كانت مصدر تندّرهم وضحكهم المتواصل.

– لمَ لا ترفعها عن عينيك بعد غياب الشمس؟

–أحتاج عتمةً مضاعفة لأفهم ما يدور من حولي،

أجاب عن سؤال صديقه بجديّة مفرطة زادت من صخب الضحكات المترنّحة، ما أثار انتباه عنصرَي الأمن اللذين كانا يقطعان الشارع جيئة وذهاباً منذ بداية المساء.

دنا عنصرا الأمن من المجموعة المخمورة، وبصيحة واحدة من أحدهما تمكنا من إخماد صوت الضحك. ليخيّم على الشارع صمت ثقيل.

وقف العنصران أمام المجموعة يمعنون فيهم بنظرات اتّهام تخترق العتمة لتصيب أفراد المجموعة بالذعر وقد تلاشى من رؤوسهم أثر الخمر الذي شربوه طيلة المساء. وحين همّ أحد العنصرين بالحديث إلى المجموعة، وقبل أن يتفوّه بكلمة، وقعت عيناه على نظّارة الكاتب المستقرّة فوق عينيه، ما أثار استغرابه وخشيته.

–لماذا تضعها؟ هل تؤذي عينيك شمس المساء؟

قال متهكّماً، مخفياً خلف نبرته خشيةً مبطنّة، وقد احتاط، بحسّه الأمنيّ، لأيّ إجابة سيسمعها. لكنّ أحد الأصدقاء فاجأه بتدخلّه السّريع، معرّفاً عن صديقه الكاتب والصحافي المعروف في محاولة منه لتحصينه من أيّ فعل شائن قد يلجأ إليه عنصرا الأمن.

– وماذا تكتب؟

– أكتب أشياء لا يمكن أن تقال.

أجاب الكاتب كاتماً ضحكة اعتملت داخله، ما أصاب عنصري الأمن بالحيرة أمام إجابته. فتبادلا سريعاً نظرات متسائلة فضحت ارتباكهما. ما دفع أحدهما أن يمدّ يده بسرعة، وبحركة خاطفة، انتزع النظّارة عن عينَي الكاتب.

– حسناً. سأستعير نظارتك وأتركها معي تذكاراً من كاتب معروف. وعليكم الانصراف حالاً قبل أن أعتقلكم بتهمة التجوّل في الشارع مخمورين.

قال ذلك بنبرة آمرة، مستعيداً سطوته، وهو يلوّح أمامهم بالنظارة.

استدارت المجموعة بغية الابتعاد، غير أنّ الكاتب بقي متسمّراً مكانه يحدّق إلى رجل الأمن بنظرة غيظ وغضب، ما دفع الرجل للابتسام.

– أعرف أنّها غالية الثمن، وأنّك فخور بها حتّى تضعها على عينيك ليلاً. لكنك لن تحصل عليها. سأتذكرك بها دائماً.

قال عنصر الأمن متهكّماً، واستدار مع رفيقه، مبتعدين بسرعة. وحين همّ الكاتب باللحاق به، أمسك به الأصدقاء، ودفعوه للسير معهم ممازحينه:

– قلنا لك لا داعي لها في الليل.

مضت شهور على الحادثة دون أن يستطيع الكاتب التخلّص من غيظه، أو نسيان الحكاية التي أدمن روايتها في كلّ مكان يجلس فيه. وهو ما دفع صديقه الصحافيّ، المعروف بولائه وعلاقاته الوطيدة بأجهزة الأمن، إلى الضّحك مطوّلاً حين سماعه الحكاية.

– من الجيّد أن عناصر الأمن لا يعرفون أسماء الكتّاب المعارضين، وإلّا لما اكتفى ذلك العنصر بأخذ نظّارتك فقط.

ومن ثمّ قدّم عرضه الذي فاجأ الكاتب:

– ما رأيك لو نعثر على ذلك العنصر، ونستعيد النظّارة منه؟

ما كان الكاتب يطمح لأكثر من ذلك، ما دفعه إلى قبول العرض بسرعة، مع معرفته المسبقة أنّ رفيقه لا يجد في الحكاية أكثر من مادّة مسليّة. ولم يحتج الأمر غير اتصال هاتفيّ طويل، استطاع الصحافيّ من خلاله الحصول على اسم العنصر الذي كان مكلّفاً حماية ذلك الشارع في تلك الليلة، وكانت المفاجأة المذهلة بالنسبة للكاتب هي المعلومة التي أضافها رئيس فرع الأمن لصديقه الصحافيّ على الهاتف، والتي تفيد بأنّ هذا العنصر يخضع لعقوبة تأديبيّة في أحد السجون، نظراً لخروجه عن أخلاقيات عمله، وتعرّضه للنظام الحاكم بالانتقاد، وتطاوله على رئيس الجمهوريّة بشتائم مقذعة على الملأ، الأمر الذي زاد من فضول الكاتب ورغبته بلقاء ذلك العنصر، ومحاولة استعادة النظّارة منه. وزاد من رغبة صديقه الصحافيّ بمزيد من التسليّة، فاستحصل على إذن من رئيس فرع الأمن لزيارة العنصر في زنزانته.

في الطّريق إلى الزنزانة اطمأن الكاتب إلى أنّ نظّارته لا تزال بحوزة ذلك العنصر، حين سرد لهما مرافقهما الحكاية الغريبة للعنصر المسجون، والتي بدأت منذ وضع نظّارة شمسيّة وراح يرفض أن ينزعها عن عينيه ليل نهار، وأبلغهما بأنّ آمر السجن ما زال يفرض عليه، كعقوبة إضافيّة، وضعها داخل الزنزانة حتّى أثناء نومه.

أمام قضبان الزنزانة وقف الكاتب مع صديقه ومرافقهما، وقد شعر بشفقة كبيرة على العنصر المسجون، والذي ظهر لهم من خلف القضبان شبحاً شبه عارٍ، وقد شوّه جسده جرّاء التعذيب الذي تعرّض له. لكنّ صديقه الصحافيّ لم يرَ شيئاً من ذلك، وكلّ ما فعله أنّه أطلق ضحكة مدويّة فشل في كتمانها وهو يرى العنصر السجين يقبع في ركن من الزنزانة المظلمة واضعاً نظّارة الكاتب الشمسيّة على عينيه:

– إنّها تليق به أكثر منك صدّقني. عليك أن تتركها له.

قال لصديقه وهو يضحك بشكل متواصل. لكنّ الكاتب لم يكن يستمع إليه لانشغاله باستعادة نظّارته، وهو يراقب بمزيد من الشّفقة حال السجين المزرية. وحين نادى المرافق على السّجين ليدنو من البوّابة أحسّ الكاتب بغصّة بالغة وهو يراه يجرجر ساقيه، ويدنو منهم بصعوبة. إلّا أنّ السجين فاجأ الجميع حين قال له المرافق:

– يأمرك سيادة العقيد أن تنزع النظّارة عن عينيك الآن. وتعيدها لصاحبها.

فما كان منه إلّا أن نزع النظّارة عن عينيه بسرعة فائقة، كمن يريد التخلّص من وباءٍ أصابه، وقام برميها ناحية الكاتب وهو يصرخ بشكل هيستيريّ منادياً بحياة القائد، مفتدياً إيّاه بالرّوح والدّم.

لم تمضِ غير أسابيع قليلة حتّى علم الكاتب من صديقه الصحافيّ، المستمرّ بمتابعة الحكاية طمعاً بمزيد من الفكاهة، أنّ عنصر الأمن قد أطلق سراحه، وبات المكلّف برئاسة كلّ الدوريّات الموكل إليها حراسة شوارع العاصمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

امرأتان

الفتاة العشرينيّة المنشغلة بالانتظار، كما يبدو من هيئتها، لم تعر انتباهاً للسيدة الخمسينيّة التي تجاورها المقعد في المقهى، بل حتى إنّها لم تنتبه لوجودها أصلاً، رغم أنّ السيّدة لم ترفع عينيها عنها منذ دخولها المتعجّل قبل نصف ساعة.

كانت تبدو مرتبكة لحظة دخولها. تلفّتت حولها مراراً قبل أن تختار طاولتها، ثمّ أوشكت على السقوط وهي تبعد الكرسي عن الطاولة لتجلس. وحين اقترب النادل منها تردّدت كثيراً بشأن ما تريد أن تشربه، فبعدما طلبت منه أن يحضر لها فنجان قهوة، نادته مجدداً لتعدل عن ذلك وتطلب منه كأساً من الكابتشينو، قبل أن تغيّر رأيها من جديد وتكتفي بكأس من عصير البرتقال البارد.

لم تحتج السيّدة الخمسينيّة أكثر من تلك الملاحظات لترتسم على شفتيها الغائرتين ابتسامة خافتة وتدرك أنّ الفتاة تواعد شابّاً، في الغالب هو حبيبها، وتأكّد حدسها وهي تراقب نظرات الفتاة المتعلّقة بباب المقهى، واضطراب أصابعها العابثة طيلة الوقت بهاتفها النقال. تفاصيل لطالما أدمنتها السيدة خلال مراحل عمرها. إنّها أكثر من خبر الانتظار ولحظاته الصعبة. هي تعرف تماماً كيف تمضي الثواني ثقيلة ريثما يصل الحبيب، وتعرف جيّداً كيف تتعرّق الأصابع وترتجف الأوصال أثناء ذلك، وكيف يخفق القلب بوجل لحظة وصوله. لكنّها أيضاً باتت تعرف ما هو أكثر من ذلك بكثير، إنّها تعرف متى لن يأتي، الأمر شبه المستحيل لمن ينتظر، فلو عرف أحدنا أنّ من ينتظره لن يأتي لاكتفى بالخيبة دون ألم الانتظار. وهذا ما دفعها بعدما رأت الشابّة تطلب رقماً عبر هاتفها عدّة مرّات، دون أن يجيبها أحد، وبعدما رأت علامات الانفعال والغضب على وجهها الطفوليّ إثر كلّ اتصال خائب، إلى أن تنهض من مكانها، وبخطوات هادئة متثاقلة دنت من الشّابة، وجلست إلى جوارها بادئة الحديث إليها دون استئذان:

– لا تجعلي الأمر ينال منك. المحبّ لا يتأخّر عن محبوبه. عليكِ ألّا تقعي ضحيّة الوهم.

وقبل أن تبادر الفتاة بالحديث إلى المرأة، وقد اتسعت عيناها دهشة، تابعت المرأة:

– لا داعي لأن تقولي شيئاً. أعرف ما يحدث، وما تشعرين به. هي المرارة دون شك، ولكن عليك تخطّيها. ليس في الحياة ما يستحق حزنك، والرجل الذي يجعلك تنتظرين لا يستحقّ مشاعرك. لن أروي لك كمّ الخيبات التي

مررت بها، ولن أقصّ عليك حكايات انتظاراتي الطويلة، أعرف أنّ وقتك ثمين ولن يتّسع لكلّ تلك الحكايات، لكنّي لن أبخل عليك بخلاصة ذلك كلّه.

تحوّلت نظرة الفتاة إلى نظرة اهتمام، وفضول كبير لما ستقوله بعد ذلك المرأة التي التقطت اهتمام الفتاة، فاتّسعت ابتسامتها، واكتست نبرتها هدوءاً وجديّةً يؤكّدان خبرة السنين الطوال، وهي تتابع:

– إنّ ما تبذله إحدانا تجاه من تحب لم يوجد بعد رجلٌ يستطيع فهمه. سبق أن عشت الانتظار حتّى ملّني، قبل أن أقتنع أنّه دون جدوى. سأقول لك باختصار، من يحبّك حقّاً لن يتأخّر عن المجيء. المحبّ يحمله شوقه إليك، فيصل باكراً، وهو من ينتظر. الرجل الذي لا يجيب على مكالماتك المتكرّرة لا يستأهل أن ترتجف أوصالك بسببه.

قالت المرأة عبارتها الأخيرة بعدما لاحظت أنّ الفتاة طلبت الرقم ذاته أكثر من مرّة وهي تصغي إليها، وازدادت توتراً لأنها لم تلق ردّاً. وهذا ما دفعها أن تمضي بنصحها أكثر، ممسكة يدها بحنوّ، وهي تؤكّد لها:

– عليك أن تهدئي يا صغيرتي. بالتأكيد لا أقصد أن تتخلّي عن الحب، إنّه معنى الحياة. ولكن لا تحبّي من لا يثمّن مشاعرك، وهذا الذي تنتظرينه...

– أنا يا سيّدتي...

– لا تقولي شيئاً، أعرف كلّ ما تفكرين به، وما تودّين قوله، وسبق لي أن قلته قبلك مراراً. لطالما ردّدت أنّي أنتظر من أحبّ، وسأنتظره لأني أحبّه. ولطالما كنت مبدعة في ابتكار الأعذار له عن تأخره. لكنّي تعلّمت بعد ذلك أنّ ما أقوم به هو جهد إضافيّ، لا يمكن لرجل أن يعرف قيمته، وهو ما يجعله غير جدير به. إنّك اليوم يا صغيرتي...

لم تكمل السيّدة عبارتها، إذ قاطعها رنين الهاتف بيد الفتاة التي سارعت لتردّ بلهفة دون اعتذار منها، وبعد ثلاث كلمات قالتها نهضت مسرعة، حاملة حقيبتها، وتوجّهت للسيّدة بكثير من اللطف:

– آسفة عليّ أن أذهب حالاً. أقدّر لطفك، وكنت أودّ الاستماع أكثر لما تقولينه، لكن عليّ اللحاق بموعدي، إنّه يومي الأوّل في العمل. كنت أنتظر وصول السيّد المدير إلى مكتبه. أنا مرتبكة جداً، تمنّي لي التوفيق.

قالت الفتاة ذلك، وغادرت المقهى بسرعة، تاركة السيّدة خلفها يتلبّسها شعور ممضّ بالخيبة، فعادت إلى طاولتها بخطوات متثاقلة، وجلست تنظر إلى ساعتها بانكسار. لقد مضت ساعتان ونصف منذ وصولها إلى المقهى، في الموعد الذي أبرمه لها صديقها الجديد عبر الهاتف، شربت خمس فناجين من القهوة ولم يأت.

دنا النادل منها بعد برهة يسألها إن كانت تريد شيئاً

– شكراً. سأمشي الآن.

قالت وهي تنهض مستعدّة للمغادرة، لكنّها ما لبثت أن عادت للجلوس وهي تنظر إلى ساعتها، وتحدّث نفسها: "لا بأس سأنتظر نصف ساعة إضافية، لابدّ أنّ أمراً ما يعيق وصوله".

أعادت طلب رقمه للمرّة العاشرة، إلّا أنّه لم يجب أيضاً، فوضعت هاتفها على الطاولة بأصابع مرتجفة، ونادت على النادل لتطلب منه فنجان قهوة جديداً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الهاربان

لم يعثر الكاتب على رفيقٍ لعزلته في الرّيف غير بطل روايته التي لم تكتمل، والذي ما زال يراقبه منذ سنوات محاولاً الإلمام بكلّ تفاصيله، بحثاً عمّا يغني روايته. ولم يستغرب أبداً ردّ بطله على طلبه بعبارة:

لا مانع لديّ من مرافقتك. ولكن لا أدري إن كان هو يرغب في ذلك!

ابتسم الكاتب ابتسامته الطيّبة، المشوبة دوماً بشيء من الدّهاء، وقد عرف أنّ بطله يقصد بالـ"هو" الشخصيّة الأخرى التي تتلبّسه.

إنّه مريضُ فصامٍ منذ عدّة سنوات. لكنّه مريض غير عاديّ، فهو أدرك مرضه مبكّراً، وأدمن منذ ذاك قراءة الكتب الطبيّة المتخصّصة بهذا المرض. كما أنّه اشترك بعدد من المجلّات المهتمّة بالأمراض النفسيّة، حتّى بات قادراً على تشخيص حالته بطريقة يعجز عنها علماء النّفس، وأطبّاء الأعصاب. وهذا تماماً ما جعله مادّةً مثيرةً للكتابة بالنسبة لصديقه. ودونما عناء، وريثما أنهى الكاتب فنجان قهوته، أعلن البطل موافقته على الرّحلة. مؤكّداً أنّه سيتعامل مع الآخر الذي يسكنه بطريقة تلائمه فلا يتسبب له بأي إزعاج.

داخل الحافلة الصغيرة التي تشقّ طريقها وحيدةً باتجاه القرية كان الكاتب يحتضن حقيبته الصغيرة كمن يخشى أن يفقد في لحظة كلّ ما يملك، وهو يتأمّل علامات الذّهول والذعر على وجوه ركّاب الحافلة، الصّامتين، يصغون إلى نشرة الأخبار المنبعثة من المذياع الذي رفع السّائق صوته إلى الحدّ الأقصى حين بدأ مذيع النّشرة تأكيده أنّ الاشتباكات المسلّحة لا تزال مستمرّة بين عناصر الجيش، وبعض المجموعات المعارضة لنظام الحكم في البلاد، واصفاً إيّاها بالمجموعات الإرهابيّة.

شعر الكاتب بقلقه يزداد في هذه اللحظة. ورغب أن يطلب من السّائق إغلاق المذياع، لكنّه لم يجرؤ على ذلك أمام الاهتمام الكبير الذي يصغي به الركّاب القلقين من دنو الاشتباكات المسلّحة من حدود قريتهم الجبليّة الوادعة. فالمناطق التي يذكرها مذيع النّشرة لا تبعد عنهم أكثر من عشرة كيلوميترات.

وحده بطل الرواية كان يجلس بجوار كاتبه باسترخاء، مطلقاً نظره عبر النّافذة، متأمّلاً الجبال والوديان الخضراء الممتدّة على طول الطّريق، وقد شعر بطمأنينة لطالما افتقدها. وترسّخت أكثر، مصحوبةً بالسكينة، حين بدأت تلوح له قمم الجبال المغطّاة بالثلوج، وأدرك أنّ شخصيتيه متّفقتان في هذه اللحظة على أنّ ما تشاهدانه هو صورة مجسّدة للسّلام الذي تنشدانه.

حين ترجلّا من الحافلة كان قلق الكاتب قد بلغ ذروته، فخياره الاعتزال لبعض الوقت في القرية جاء رغبةً منه بالابتعاد عن التوتّر، والقلق، والصّخب الذي

تعيشه المدينة هذه الأيّام، حيث بلغ صراع السلطة، مع القوى المعارضة لنظام الحكم حدّاً بات فيه أزيز الرّصاص ودويّ الانفجارات أصواتاً اعتياديّة تتكرّر باستمرار على مدار اليوم. وقبل أن ينجح الكاتب بتجاهل حديث مذيع النشرة كان قد وصل مع بطله إلى حاجزٍ للجيش نصب عند مدخل القرية. وبعد أن قام عناصر الجيش بالتدقيق في بطاقتيهما الشّخصيّتين، وتفتيش محتويات حقيبة الكاتب الصّغيرة، والتّأكّد من أنّهما ليسا غريبين عن المنطقة، سمع الكاتب من أحد العناصر عبارة تحذيريّة أعادت قلقه إلى ذروته، مرفقاً بشعور مرير بأنّه سيفشل بالحصول على هدوء كان ينشده حين قرّر المجيء إلى هنا:

حاولا أن تلزما البيت، ولا تغادراه، فالمنطقة غير آمنة على الإطلاق.

في الدرب القصيرة نحو البيت مشى بطل الرواية بخطىً بطيئة متأمّلاً آثار قدميه على الثلج، سعيداً بالوئام الذي وصل إليه مع شخصيّته الأخرى. بينما كانت عينا الكاتب تدوران في محجريهما مذعورتين من هدوء مريب يعمّ المكان – في منطقة يفترض، عادةً، أنّها تعجّ بالزائرين في مثل هذه الأوقات– وفيما هو منشغل بتقييم خياره الاعتزال هنا، ومدى صوابيته، كان بطل الرواية يتمنى في سرّه أن تطول إقامته في هذا المكان الذي يشي بهدنة طويلة الأمد بين شخصيّتيه المتناحرتين دوماً.

نباح الكلب الذي بدّد الصّمت لحظة شروع الكاتب بفتح باب البيت، بدا – مع رجع صداه عبر الأودية، والجبال المحيطة بالمكان – كأنّه نباح قطيعٍ من الكلاب، ما جعل الكاتب يلتفت مذعوراً ناحية الصّوت، ليجد بطله جالساً عند مدخل البيت يضحك، متأمّلاً كلباً نحيلاً، مرقّطاً، أجرب، يقف فوق الثلج على بعد خطوات منه، وينبح بشكل متواصل. تنهّد الكاتب بارتياحٍ قبل أن يسمع عبارة بطله الذي خاطبه، وهو يشير إلى الكلب الأجرب:

– يبدو أنّه الكائن الوحيد في هذا المكان، وقد استأنس بوجودنا، وأظنّ نباحه ترحيباً بنا.

أخفى الكاتب عن بطله إمارة استياء ارتسمت على وجهه جرّاء العبارة، وانتبه إلى أنّ صديقه يجلس فوق كومة كبيرة من الثلج:

– انتبه، إنّك تجلس على الثلج.

– شعورٌ جميل، الثلج هنا ليس بارداً.

قال البطل. دون أن يكفّ عن الإيماء بحركاتِ مداعبةٍ للكلب الأجرب المستمرّ بالنباح.

ضحك الكاتب فرحاً لأنّه حظي بعبارة جميلة لروايته. ودخل البيت مستعيداً يقينه بأنّ إقامته مع بطله في هذه المنطقة المعزولة ستعجّل باكتمال الرواية، وتجعلها أكثر غنىً.

في البيت شعر البطل بأنّه وقع على كنز ثمين إذ وجد نفسه محاطاً بمئات الكتب. تضمّ بينها عدداً كبيراً من كتب التّحليل النفسيّ التي يتوق لقراءتها. ما زاد من شعوره بالطمأنينة المشوبة بالسعادة. فكلّ ما حوله يسهم بإطالة أمد الهدنة بين شخصيّتيه. وهذا ما أدركه الكاتب منذ اللحظات الأولى، فقرّر أن يكون عاملاً إضافيّاً يعزّز تلك الهدنة، لمعرفته بأنّ أيّ استفزاز لشخصيّة البطل الأخرى قد تودي إلى رحيله، وتركه وحيداً، في وقت لا يرغب فيه بالوحدة، أو ربّما لا يجرؤ عليها. كما أنّه لا يريد أن يخسر فرصة الإحاطة التّامّة بمادته الروائيّة، وهذا ما جعله يلعب، طواعيّةً، دور الخادم الرّصين، المستعدّ دوماً لتلبية احتياجات بطله كاملة دون تذمّر.

مساءً. حين كان الثلج ينهمر بطيئاً في الخارج، وبينما الكاتب منهمكٌ بإيقاد مدفأة الحطب انتبه إلى بطله، الذي لم ينهض عن كرسيه لعدّة ساعات أنهى خلالها عدداً من الكتيّبات التي تتحدّث عن مرض الفصام، ينظر إليه ضاحكاً.

لماذا تضحك؟

– أنا أكثر وسامةً منك. وأستغرب كثرة النّساء اللواتي يحببنك، ويعجبن بك، بينما لم تعجب بي واحدة حتى اليوم.

ضحك الكاتب ضحكة طويلة قطعها استرسال البطل بالحديث:

– أنا متأكّد أنّ الكثير من نسائك كنّ يتمنيّن أن يكنّ معك هنا في هذه العزلة المفعمة أنوثة، فلمَ اخترتني لأكون مرافقك؟

دنا الكاتب منه بهدوء، وجلس قربه وهو يشعل سيجارته، وانتبه إلى أنّ بطله انتقل من كتيّبات مرض الفصام، إلى كتاب استمع أيّها الصّغير لولهام رايش، وقد أتى على جزء كبير منه، فابتسم وهو يقول:

– أريدكَ أن تكون بمثابة درع لي إذا ما وصل المسلّحون إلى القرية، فتخرج إليهم ليتلهوا بك ريثما ألوذ بالفرار.

قال الكاتب ذلك بجديّة لا أثر فيها للمزاح، وهو متأكّد أنّ في ما يقوله جزءاً كبيراً من الحقيقة، بغضّ النظر عن طريقة التّعبير عنها، لكنّه فوجئ بضحكة طويلة أطلقها البطل – كعادته حين يضحك تلك الضحكة الطفوليّة التي يعجز خلالها عن التقاط أنفاسه– ليسقط الكتاب عند قدميه، فيلتقطه بسرعة وهو يقول:

– أظنّك مصيباً بخيارك، فإن وصل المسلّحون إلى هنا، وخرجتُ إليهم سيجدون فيّ مادّة مثيرة لسخريتهم، قبل أن ينفذ صبرهم، ويقرروا قتلي. وعندئذ سيطلقون عليّ النّار، ويردونني قتيلاً. ورغم إدراكي أنّي سأموت حينها، إلّا أنني واثق من أنّ فرحاً ما سيغمرني وأنا أرى ذلك المتعجرف الذي يسكنني يسقط صريعاً. وبينما يموت هو متألّماً، سأموت أنا سعيداً بموته، وخلاصي منه، وبالفعل ستكون بالنسبة لك مسافة كافية لتلوذ بالفرار.

قال ذلك، وعاد لضحكه الطفوليّ من جديد. فتركه الكاتب غارقاً في ضحكه، وراح ينهمك بإعداد الطّعام له، الطّعام الذي لا يقدر هو على تناول شيء منه بفعل الحمية الصارمة التي فرضها عليه طبيبه بعد إصابته بقرحة في معدته.

توالت الأيّام بطيئة، أنهى خلالها بطل الرواية قراءة عشرات الكتب، متنقّلاً بسلاسة غريبة بين كتب الفلسفة، والتحليل النفسيّ المعقدّة، وبين مجموعات شعريّة، وروايات رديئة لكتّاب محليين من الدرجة العاشرة، وقد فشل الكاتب أكثر من مرّة في محاولة تخمينه للكتاب الذي بين يدَي بطله، فهو يقرأ الكتب جميعها باهتمام، وبالشّغف ذاته.

في تلك الأيّام أنجز الكاتب فصلاً كاملاً من روايته يتحدّث فيه عن تجربة بطله في المعتقل الذي أمضى فيه تسعة أشهر بعد أن ألقي القبض عليه وهو يقوم بتوزيع منشورات سريّة في وضح النهار. وحين سأله الكاتب عمّا دفعه للقيام بذلك بذلك نهاراً بهذه العلنيّة، وهذا الشكل السّافر، أجابه:

– لم أكن أنا، هو من كان يقوم بذلك رغم اعتراضي عليه.

وروى له تفاصيل مؤلمة عن التعّذيب الذي تعرّض له في المعتقل. لكنّه أكّد أنّه لم يشعر بكلّ ذلك، وأنّه لم يكن أكثر من متفرّج على ما يتعرض له الآخر الذي يسكنه، كما روى حالة الاستفزاز التي أصابت أحد المحقّقين حين رآه يضحك بشكل متواصل رغم التّعذيب، مؤكّداً:

– لم أكن أشعر بشيء. كان الضرب ينهال عليّ، فأرى الآخر الذي بتّ أكرهه يتألّم، فأشعر بالسعادة، وأضحك.

عشرون يوماً أمضاها الكاتب مع بطله داخل البيت. وباستثناء ساعات الكتابة التي يستغرق فيها ليلاً، فقد كان الكاتب يمضي بقيّة يومه منشغلاً بتلبية احتياجات بطله، الذي يأكل، ويدخّن بشراهة كبيرة، ولا يكفّ عن احتساء المشروبات السّاخنة طوال اليوم، دون أن يغادر كرسيه، إلا للحظات قليلة يقف فيها على الشرفة، ويرمي بعضاً من طعامه للكلب الأجرب الذي ما عاد يبتعد عن مدخل البيت، ما دفع الكاتب إلى ممازحته مرّة:

– أمضي جلّ وقتي أعدّ لك الطّعام، وأنت ترميه لذلك الكلب الأجرب؟

– لكلّ منّا أسبابه تجاه من يهتمّ به.

قال البطل بنبرة جافّة مشوبة بشيء من التحدّي جعلت الكاتب يلزم الصّمت مخافة استثارة بطله، وقد أدرك أنّ صبراً بداخله بدأ ينفذ بسبب قلّة الحركة. وهذا ما تأكّد منه حين استيقظ في اليوم التّالي ليجده واقفاً خارج البيت، وعند قدميه يجلس الكلب الأجرب مستكيناً، بينما يلتقط هو بعض الثلوج، يكوّرها بين يديه، ويقذفها إلى البعيد، ما جعله يشعر بغصّة صغيرة، لإحساسه أنّه فرض على صديقه مزاجاً قد لا يحتمله لفترة طويلة، فقرّر التخلّي عن حذره، واقترح على صديقه نزهةً جبليّة سيراً على الأقدام. اقتراحٌ تلقّاه البطل بابتسامة خافتة اتّسعت تدريجياً لتتحوّل إلى ضحكة طويلة، أتبعها بالتقاط كرة ثلج قذف بها الكلب الأجرب، الجاثم عند قدميه، فنفض الكلب الثلج عنه، وأطلق نباحاً طويلاً، مشاركاً صاحبه ضحكته التي لم تتوقّف.

لم يجرؤ الكاتب على الابتعاد كثيراً عن البيت قبل أن يبحث عن أحد أبناء القرية، مستفسراً عن الأوضاع السائدة، فطمأنه رجلٌ إلى أنّ الاشتباكات لا تزال بعيدة عن القرية، ونصحه إن أراد التنزّه أن يسلك الطرق الجنوبية فهي الأكثر أماناً.

في الطريق الجبليّة لاحظ الكاتب نشاط بطله وهو يركض مسابقاً الكلب الأجرب دون أن يتوقّف عن الضحك، ودون أن يكفّ الكلب عن النباح، وراح هو يشغل نفسه بالتقاط مجموعة كبيرة من الصور الفوتوغرافية لمناظر غريبة تذخر بها المنطقة، مكتفياً بمراقبة بطله دون التحدّث إليه خشية أن يفسد عليه سعادته. وحين أوشكت الشمس على المغيب، وبعد أن قطع الصديقان مسافات طويلة جدّاً، أعلن الكاتب عن ضرورة العودة إذ بدأ القلق يتسلل إليه مع دنو الظلام. فعادا معاً يسيران جنباً إلى جنب بخطىً بطيئة، يتبعهما الكلب الأجرب صامتاً، قبل أن يطلق نباحاً قصيراً، منبّهاً إيّاهما إلى عجوز ظهر فجأة، يسير نحوهما. ما دفع الكاتب إلى الوقوف متوجّساً، وإذ شعر البطل هذه المرّة بقلق كاتبه أشار له في الحال إلى الكلب، يريد طمأنته: أنه بوجود الكلب سيصعب على الرجل أن يتسبّب بالأذى لهما. ابتسم الكاتب بودّ قائلاً:

– أرأيت كم إنّي مصيب باختياري لك لمرافقتي؟

ضحك البطل، وقد شعر للمرّة الأولى أنّ وجوده هنا كان ضرورة.

في هذه الأثناء كان الغريب يدنو من الرّجلين بخطوات منهكة، وعلى بعد أمتار قليلة منهما مدّ يده إلى جيبه، وأخرج رزمة من أوراق اليانصيب، ونادى بصوت مرتفع:

– بكرا السحب يانصيب.

التفت البطل إلى كاتبه ذاهلاً فوجده يبتسم، وهو يدنو من العجوز ويبتاع منه ثلاثة أوراق انتقى أرقامها بعناية، ليبتعد العجوز بعد ذلك متابعاً طريقه الجبليّة صعوداً، بينما البطل يراقبه باستغراب، ودهشة كبيرين. وحين حثّه الكاتب على مواصلة الطّريق، التفت إليه مستنكراً:

– هل يظنّ هذا المجنون أنّه سيعثر في هذه المنطقة المقفرة على من يشتري منه أوراق اليانصيب؟

نظر الكاتب إلى الأوراق الثلاثة في يده. ابتسم ابتسامة واسعة، ثمّ دسّها في جيبه، وتابع طريقه نزولاً، تاركاً بطله متسمّراً مكانه يلاحق خطوات الرجل العجوز باستنكار شديد، وعند قدميه يهزّ الكلب الأجرب ذيله متسائلاً إن كانا سيتابعان طريقهما، أم سيمكثان هنا لوقت طويل؟

رشقة رصاصٍ قصيرة بدّدت الصمّت في هذه اللحظة. وجعلت البطل ينبطح أرضاً، بينما هرب الكلب راكضاً وهو ينبح دون توقّف. ليعود الصمت ثقيلا بعد لحظات، فيجرؤ البطل على الزحف فوق الثلج مذعوراً وهو يرى مجموعة كبيرة من الأوراق تتطاير من حوله، قبل أن يلمح خيطاً أحمر قانئاً يسيل دافئا فوق الثلج، ويعثر على صديقه الكاتب جثّةً غارقة بالدّم، وإلى جواره ترقد حقيبته الصغيرة مفتوحةً، وقد تطايرت منها أوراق روايته، وعلى طرف جيبه علقت ثلاث أوراق يانصيب محترقة الأطراف ومصبوغة بالأحمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طفلتان

حين دخل المقهى وهو يحمل بين ذراعيه ابنته التي أتمّت عامها الثاني قبل يومين، لم تتمالك الطفلة نفسها وبدأت نوبة بكاء هستيري، مذعورة من الضجيج، ومنزعجة من دخان السجائر العابق في المقهى.

لم تنجح مداعبات الأب في تهدئة ابنته، كما رفضت الطفلة تودّد طفلة أخرى تكبرها بعامين دفعها والدها الى ملاطفة الصغيرة. وبعد لحظات قليلة كانت الصغيرة محطّ اهتمام روّاد المقهى جميعاً، الذين ابتعدوا عن شاشة التلفاز حيث كانوا يتسمّرون لمتابعة أخبار الحرب المتواصلة في البلاد، وراح كلّ منهم يعرض مهاراته الكوميديّة أمام الصغيرة، وكأنّ رهاناً خفياً وجد بين الجميع حول من سينجح بإيقافها عن البكاء. كلّ المحاولات باءت بالفشل. وحدها علبة البسكويت، التي أحضرها النادل، كانت كفيلة بإيقاف البكاء، وتحويله إلى ضحكات فرح راحت الصغيرة تطلقها وهي تقلّب العلبة بين يديها محاولة فتحها.

تبادل الزبائن ابتسامات تخفي في طياتها شيئاً من الخذلان، بينما ابتعد النادل مزهوّاً بانتصاره الصغير على مواهب زبائنه. ومن ثمّ عاد الجميع الى كراسيهم أمام شاشة التلفاز، يتابعون بعيون ذاهلة مشاهد الدمار والقتل المتوالية أمامهم، بينما أجلس الرّجل طفلته إلى جوار ابنة صديقه، التي تكبرها بعامين، بعدما فتح لها علبة البسكويت، وسارع إلى إشعال سيجارته والانضمام إلى مشاهدي التلفاز.

لم تتبادل الطفلتان أيّة كلمة، فالصغيرة انهمكت بإخراج قطعة البسكويت من العلبة، وبدأت تمصّها، كونها لم تنبت لها أسنان بعد، فقد تأخرت أسنانها بالظهور، جرّاء نقص بمادة الكلس لديها، حسب ما قال الطبيب لوالديها، فيما الأخرى تراقبهاوشفتاها تتلمّظان. انتبهت الصغيرة بعد لحظات إلى نظرات رفيقتها، فارتسمت على شفتيها ابتسامة مرحة، وسارعت لإخراج قطعة جديدة من العلبة، ومدّت يدها الصغيرة نحو رفيقتها تدعوها لمشاركتها. لم تتردّد الأخرى. خطفت القطعة من اليد الصغيرة، وسارعت الى التهامها مباشرة تحت نظرات رفيقتها المشدوهة، وقد ارتسمت على وجهها الصغير ابتسامة ذاهلة. وما كادت الطفلة الكبرى تنتهي من التهام قطعة البسكويت، حتى سارعت الصغيرة إلى تقديم قطعة جديدة لها، فتناولتها بفرح وامتنان وراحت تقضمها بالشهيّة ذاتها. عندئذ سمع الزبائن، الصامتين أمام هول ما يعرضه التلفاز، صوت الصغيرة تقول لرفيقتها بدهشة ملؤها الفرح:

– آه... أنت تملكين أسناناً!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

بائع الورود

لم يكن بائع الورود، بنحوله وضآلة جسده، مختلفاً عن رفاقه من الأطفال المتسولين وباعة الورود الذين يضجّ بهم الشّارع طيلة النهار، غير أنّ هيئته المختلفة هي التي لفتت أنظار روّاد المطاعم ومقاهي الرّصيف الموزّعة على جانبَي الشّارع، إليه. فإضافة إلى ابتسامته البريئة المشوبة بشيء من شقاوة الطفولة، والتي لا تفارق وجهه، أضفت عليه ثيابه النظيفة المرتبة، وشعره المصفّف بعناية، مظهراً لطيفاً جذب روّاد الشّارع إليه، وجعلهم يشترون الورود منه، ويدفعون له النقود بسخاء، لقاء حديث لطيف معه، هو الذي أتقن فنون الحديث إلى زبائنه، وملاطفتهم بعبارات جميلة، وكذلك بتوزيع القبل على الفتيات منهم. الأمر الذي أثار حنق رفاقه في الشّارع، الذين يتعرّضون للتأنيب، وينهرون في كلّ مرّة يقتربون فيها من أحد روّاد الشارع متسوّلين، أو راجين أن يشتري منهم الورود.

بداية الأمر كان بائع الورود يدنو من المقهى، ويقف إلى جوار طاولةٍ يجتمع الزبائن حولها، ويمدّ إليهم يده الصغيرة ممسكةً بوردة حمراء قانئة، مع ابتسامة طفيفة ترتسم على وجهه ذي الملامح الجميلة. وما إن يلتفت أحد الزبائن إليه حتّى يبدأ بمحادثته وقد فوجئ بهيئته، ليغدو الطفل بعد لحظات قليلة نجم المجموعة دون منازع، فتنهمر عليه أسئلة يتناوب الزبائن على طرحها، ليبدو الأمر أشبه بلقاء صحافي مع نجم سينمائي. في هذه الأثناء كانت مجموعة من الأطفال المتسوّلين وباعة الورود يتجمّعون في مكان قريب، يراقبون رفيقهم وقد تراهنوا على مدى نجاحه ببيع إحدى وروده لهؤلاء الزبائن. وما إن يمدّ أحد الزبائن، في نهاية المطاف، يده ليأخذ الوردة من يد الطّفل، حتى تتعالى صرخات الأطفال بين فرح بإنجاز صاحبه، ومغتاظ منه. إلّا أنّ الغيظ لا يلبث أن يصيب حتى الفرحين منهم، حين يفاجأون برفيقهم يقوم بتوزيع وروده على جميع الزبائن الذين بدورهم راحوا ينقدونه المال بسخاء لم يعتده الأطفال من قبل.

حاول أطفال الشّارع في الأيّام التالية محاكاة أسلوب صاحبهم، وباتوا يجيئون الى الشّارع بثياب نظيفة، قدر المستطاع، وشعور مصفّفة ومدهونة بزيوت رخيصة. يذرعون الشارع جيئة وذهاباً مقلدّين أسلوب رفيقهم بالتقرّب من الزبائن، وإن كانت حيلة بعضهم نفعته ببيع ورود قليلة، إلّا أنّ أحداً منهم لم يستطع مجاراة الطفل الذي لقبه رفاقه بملك الشحّادين، فحين يتمكّن أحد الأولاد من بيع وردتين أو ثلاثاً، يكون ملك الشحّادين قد انتهى من بيع باقته بأكملها، وحصل على زيادة أكبر بكثير من الثمن الذي يطلبه.

بمرور الأيّام ملّ الأولاد تقليدهم للملك، ورجعوا لحالهم الذي كانوا عليه، وعادت ثيابهم متّسخة، وشعورهم منكوشة، واستعادوا وسائلهم التقليديّة بالتوسّل والرجاء، فيما تحوّل الملك إلى نجم للشارع دون منازع، يعرفه جميع رواد المقاهي والمطاعم، وموظفو الشركات التي يغصّ الشارع بمكاتبها. يصل الشارع في الخامسة عصراً، وبعد ساعتين على أبعد تقدير يكون قد انتهى من بيع الورود، ويروح يمضي وقته متنقّلاً بين الطاولات، يجلس مع زبائنه، يتبادل أطراف الحديث معهم، يقدّمون له الطعام، والحلوى، والمشروبات الباردة. يمازحهم بكثير من الطفولة والذكاء. ينادونه باسمه، ويناديهم بأسمائهم مرفقة بألقاب لطيفة يطلقها عليهم. فيما رفاقه يجوبون الشّارع بتوسّل ورجاء غير مهتمين بما آل إليه رفيقهم بعدما اقتنعوا أنّ ذلك نصيبه ولا مقدرة لهم على مجاراته.

شهران عاشهما الطّفل ملكاً للشحّادين، وملكاً على الشارع برمّته قبل أن تلتقيه إحدى زبوناته جالساً على الرّصيف، محتضناً باقة وروده الكبيرة، وغارقاً بدموع غزيرة تسيل على خدّيه المتجمّدين برداً. دنت السيّدة منه، وجلست إلى جواره بهدوء وقد أحسّت بغصّة كبيرة تعتصرها لرؤيته على هذه الحال، هي التي طالما تغزّلت بابتسامته وضحكاته الجميلة التي يطلقها حين يمازحه أحد ما، وضعت يدها على رأسه بحنوّ سائلة إيّاه عمّا أصابه، وعن سبب بقائه في الشّارع إلى هذا الوقت المتأخر من الليل.

–لا أستطيع الرجوع قبل أن أبيع الورود.

– ولمَ لم تبعها إلى الآن؟

– ما عاد أحد يشتري مني. كلّ الزبائن باتوا أصدقائي. يجلسونني معهم، نتسامر، أروي لهم النكات، نضحك ساعات طويلة، وحين أمضي لا يطلب أحد منهم ورداً، وأخجل أن أعرض عليهم ذلك. إنهم أصدقائي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

روماتيزم

قبل أن تفتح العجوز عينيها، مدّت كفّيها المعروقتين إلى ساقيها وراحت تدلكهما برفق، مصدرةً أنيناً خافتاً، شاكيةً عدم قدرتها على المشي، متذمّرة من بقائها طريحة الفراش لأربعة أيّام متواصلة، بعدما استفحل مرض الروماتيزم وتمكّن من مفاصلها تماماً. كانت العجوز تتمنّى لو يحضر أحد أفراد عائلتها، هذه اللحظة، إلى الغرفة لمساعدتها على النهوض، لكنّها كانت تتعمّد كتم أنينها، وخفض صوت شكواها كي لا تزعج أحداً منهم بداية النّهار.

جلست العجوز في السرير بصعوبة بعدما فتحت عينيها، وضمّت ساقيها النحيلتين إلى جسدها الضئيل مواصلة تدليكهما، شاتمةً المرض بصوت خفيض، مستخدمة ألفاظاً بذيئة، ملقية باللوم على عفراء، حفيدتها الشابّة، لعدم استجابتها لطلبها الذي أعادته عليها مراراً بأن تحضر لها، من الصيدلية المجاورة، مرهماً يساعد على تخفيف آلامها.

حاولت العجوز مغادرة السرير بعد دقائق، لكنّها فشلت بذلك، كما فشلت في الأيام الماضية. وأخيراً استسلمت لآلامها وقرّرت ملازمة السرير ريثما يدخل أحد غرفتها ويساعدها على النهوض. أسندت ظهرها على الحافّة المعدنية للسرير، ومدّت يدها نحو الطاولة المجاورة تريد علبة التبغ، فهي لم تتوقف عن التدخين منذ خمسين عاماً، ولم تبدأ يوماً من تلك الأيّام الطويلة دون سيجارة تمجّها بشغف قبل القيام بأي فعل، وكم كانت سعادتها عظيمة حين لامست أصابعها، بدلاً عن علبة التبغ، علبة الدواء الموضوعة بجانبها. أخذتها بلهفة، وفتحتها لتتأكد أنّها عبارة عن ماسورة مرهم، كما تسميها، فاغرورقت عيناها بالدموع، وراحت تتمتم عبارات الاعتذار عن لومها لحفيدتها، التي يبدو أنّها لم تنس الدواء، وأحضرته مساءً بينما الجدّة نائمة.

لم تتأخر العجوز، فتحت العلبة بسرعة وراحت تضع المرهم على ساقيها وتدلكهما بقوّة، إلى أن تورّدتا وشعرت بحرارتهما ترتفع رويداً رويداً، بينما راح الألم يتلاشى تدريجياً. تناولت بعد ذلك سيجارتها، ودخنتها في السرير، وهي تديم النظر إلى ساقيها، وتعيد بين لحظة وأخرى عبارات الغفران عن ظلمها لحفيدتها. لم يستغرق الأمر طويلاً حتى حاولت العجوز، من جديد، مغادرة السرير، وفوجئت أنّها تنجح بالوقوف دون ألم. عندئذ غادرت الغرفة بخطوات متأنية، فرحةً بعدم حاجتهاإلى لمساعدة أحد على المشي. سألت عن حفيدتها لتشكرها، لكن ابنتها، الفرحة بقدرة والدتها على المشي وحيدة، أبلغتها أنّ حفيدتها في المدرسة ولن تعود قبل المساء.

انشغلت العجوز بالبحث عن طريقة تعبّر فيها للحفيدة عن امتنانها، وتساعدها أن تغفر لنفسها عبارات التأنيب واللوم التي تلفّظت بها صباحاً، وأخيراً عثرت

على ما تريد، فالجوّ العاصف في الخارج ألهمها أن تبدأ بحياكة وشاح صوفيّ يقي حفيدتها برد الشتاء. لم يكن الأمر سهلاً، فهي لم تستخدم صنانير الحياكة منذ زمن طويل، كما أنّ ارتجاف يديها المتواصل سيزيد الأمر صعوبة. إلّا أنّ ذلك لم يثنها عن الفكرة، فطلبت إلى ابنتها أن تحضر لها الصوف وصنّارات الحياكة، وجلست قرب المدفأة، كما كانت تجلس أيّام شبابها لتحوك الملابس لأولادها، وراحت بهدوء تغزل خيوط الصوف ببعضها بعدما اختارت ألواناً زاهية تعرف مدى حبّ الحفيدة لها.

عملت العجوز بمثابرة ودون توقّف، سوى مرّات قليلة، حين كان الألم يعاود ساقيها، فتتوقّف لدهنهما وتدليكهما قليلا، ومن ثمّ تواصل العمل.

مساءً دخلت الحفيدة البيت مبتلة بالمطر، وسارعت إليها الأمّ لتجفف شعرها وتنزع عنها ثيابه االمبلولة، وحين انتبهت الحفيدة إلى جدّتها جوار المدفأة تنظر إليها مبتسمة، حيّتها فرحةً بشفائها، وبقدرتها على مغادرة السرير، فدعتها الجدة أن تدنو منها لتحصل على هديّة أعدتها لها. ركضت الشابّة نحو جدتها، وكانت سعادتها عظيمة وهي ترى الوشاح الصوفيّ بألوانه الزاهية وقد فردته الجدّة أمامها قائلة:

– لا أملك ما أشكرك به غير هذا.

ارتدت الشابّة الوشاح، وراحت تمشي متبخترة أمام أمّها وجدتها الناظرتين إليها بفرح. وفي هذه اللحظة انتبهت إلى علبة الكريم، ممسّد الشّعر، ملقاة على الأرض بجوار قدمَي الجدّة، العلبة التي أمضت ساعة من وقتها صباحاً تبحث عنها دون جدوى، وقبل أن تتفوّه الشابة بكلمة، أمسكت الجدّة العلبة بفرح قائلة:

– إنّه دواء سحريّ ما إن أدلّك ساقيّ به حتى يزول الألم منهما تماماً. أشكرك حبيبتي أنّك لم تنسي جدّتك.

لم تملك الشابّة عندئذ غير النظر إلى أمّها التي أومأت لها بعدم الفهم. ومن ثمّ دنت من جدتها فقبّلت رأسها شاكرة إيّاها على الوشاح الجميل، واعدةً أن تستمرّ بإحضار هذا الدواء لها كلّما فرغت علبة منه.

رمشتْ عفراء بعينيها بعدما انتهت من استعادة الذكرى. خمس وأربعون سنة مرّت على ذلك اليوم، وها هي اليوم تجلس وحيدة، ملتحفة الوشاح الذي حاكته لها الجدّة، يصلها هدير الحرب صاخباً، وتمعن النظر في الصورة التي التقطتها لولدها لحظة مغادرته المنزل، حيث وقف بالباب بلباسه العسكريّ، مستديراً نحوها نصف استدارة، ملوّحاً بكفه، راسماً على شفتيه ابتسامةً تطمئنها إلى أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام.

تمعّنت في ابتسامته طويلاً حتى تمكّنت أخيراَ من النهوض على ساقيها بعد أيّام طويلة من القعود، فشلت خلالها بالحركة دون أن يساعدها أحد، وبخطوات بطيئة دنت من النافذة. أزاحت الستارة مطلقةً نظرها إلى البعيد، إلى حيث تتكثّف غيوم الانفجارات المتواصلة، متشبّثة بابتسامة ولدها المطمئنة، رانيةً إلى الطريق التي سيعود منها ملوّحاً بفرح، يضحك ضحكته الطفولية التي تحبّ، ناسيةً تماماً ما أبلغوها به قبل أيّام عن موته ودفنه في أرض المعركة لتعذّر نقل جثّته إليها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عيونٌ مغمضة

عند النّاصية توقّف عن المشي. فتح عينيه، واستدار ناظراً إلى الطّريق الذي قطعه. ارتسمت على شفتيه ابتسامة طفيفة، راحت تتّسع تدريجياً وهو يقرأ تفاصيل المكان الذي اجتازه مغمض العينين، وقبل أن تتحوّل ابتسامته إلى ضحكة فوز مرتفعة، انتبه إلى المارّة، فاستدار مسويّاً ملابسه، وتابع طريقه إلى عمله، ممتلئاً بالرّضى عن أدائه هذا اليوم.

حين كان طفلاً كانت هذه اللعبة هي تسليته الوحيدة في طريقه إلى المدرسة. يختصر بواسطتها ملل الطّريق الطّويلة، ورتابتها. يقرّر أن يغمض عينيه في لحظة، ولا يفتحهما إلّا بجوار دكّان البقّال الذي سيشتري من عنده السّكاكر، محافظاً على سرعته ورتابة خطواته، محاولاً تقدير المسافة التي عليه أن يقطعها. وكم كان شعوره بالفرح كبيراً حين ينجح في أن يفتح عينيه أمام باب البقّال تماماً. ليعيد تكرار اللعبة مراراً، مستمتعاً بالألوان التي تتيح له أشعّة الشّمس المتساقطة على جفنيه اختبار تمازجها، وسباحتها في وسطٍ لزجٍ من عتمةٍ تبدو أليفة وحميمة، في كلّ مرّة يختار هدفاً جديداً يفتح عينيه عنده، فيكون عمود الكهرباء، أو حاوية القمامة، أو جذع الشجرة المقطوع، الذي بقي راسخاً على حافّة الرّصيف، لتكون بوابّة المدرسة، دائماً، اختباره الأخير، فينجح باجتيازها بمهارة، بعد أن يتعثّر مرّات على عتبتها، ويرتطم مراراً بالجدار قبل أن يحفظ أبعادها جيّداً.

أمّا اليوم، وقد تجاوز الأربعين من العمر فلم تكن غايته من اللعبة التّسلية أو اللهو، وإنّما شعورٌ تلبّسه بأنّه سيفقد البصر خلال وقت قصير، فالحرب لا توفّر أحداً، ولم يعد ثمّة حقيقة في البلاد سوى مشاهد الموت ورائحته، ورغم ذلك كان يقينه يزداد يوماً بعد يوم بأنّه في منأى عن الموت، رغم فداحته، وأنّه سيفقد بصره في حادثة لن تميته، ما دفعه أن يستعيد لعبته القديمة، محاولاً التدرّب مسبقاً على طريقة عيشه القادمة، حين لن يعود باستطاعته أن يرى شيئاً. الأمر الذي دفعه، منذ بعض الوقت، أن يمشي في البيت مغمض العينين، متفادياً الاصطدام بالأثاث والجدران، يحاول العثور على أشيائه، وارتداء ملابسه، وتحضير طعامه، ومتابعة الأخبار عبر المذياع بدل التلفاز. وحين نجح، قبل أسبوع، في أن يمضي يوماً كاملاً في البيت، دون الحاجة إلى فتح عينيه لحظة واحدة، قرّر أنّ عليه الانتقال بتدريباته إلى الشّارع. وها هو اليوم يجتاز الشّارع الذي يسكن فيه، من مدخل البيت إلى النّاصية دون حاجة إلى عينيه، ودون أن يتعثّر كما حدث في الأيّام الأولى، متجنباً الاصطدام بصناديق الخضار التي ينشرها أبو محمود على الرّصيف، متفادياً الحُفر الثماني الموجودة على طول الشّارع. وأهمّ ما في الأمر أنّه تمكّن أخيراً من التغلّب على فضوله ولذّته باستراق النّظر إلى نافذة سهيلة، المطلّة على

الشّارع، حيث تقف في مثل هذا الوقت من كلّ يوم أمام مرآتها تسرّح شعرها الطّويل المبلول، مرتديةً ثوب نومها المفرط بشفافيّته.

مساءً، وهو مستلق على الأريكة، مغمض العينين، منصتاً إلى أخبار الموت والدّمار التّي تبثّها الإذاعة على مدار السّاعة، غير مكترث لأصوات الطائرات والرّصاص والقذائف التي تدوّي خارجاً، والتي ألفها حتّى ما عاد ينتبه إليها إن لم يتقصّد ذلك، كان يفكّر في أنّ عليه، اعتباراً من الغد، التدرّب على كيفيّة الوصول إلى عمله دون الحاجة لعينيه. فراح يحاول استعادة تفاصيل الطريق التّي يعبرها كلّ يوم، محدّداً النقاط الأكثر صعوبة، فهو ملزم باجتياز شارعين عريضين، مزدحمين بالسيّارات، وكذلك الوصول إلى سيّارة السرفيس التي ستنقله إلى حيث يعمل، ومعرفة لحظة وصوله ليطلب إلى السّائق التوقّف. والأهمّ من كلّ ذلك أنّ عليه التمرّن على أداء واجبه الوظيفيّ كاملاً دون الحاجة إلى عينيه، وإلّا سيكون عرضةً للبطالة لحظة إصابته بالعمى.

كان يرسم في مخيلته خارطة تقريبيّة للمسافات التي يقطعها كلّ يوم، محاولاً استعادة تفاصيلها كخطوة أولى، قبل البدء بالتدريبات اليوميّة التي عليه أن يبدأها غداً، وكان يشرب شايه السّاخن، ويدخّن بشكل متواصل –وقد اعتاد التلذّذ بالسجائر دون رؤية دخانها– بينما الإذاعة مستمرّة بالحديث عن أخبار الاشتباكات المتواصلة، ومستمرّة بتلاوة إحصائيّات القتلى، التي تختلف أرقامها باختلاف مصادرها. وفي لحظة استغراق بتفاصيل خارطته سها عن سماع اسم بلدته، واسم حيّه الذي قالت الإذاعة إنّه يتعرّض، في هذه اللحظات، إلى هجمات عنيفة من قبل مسلّحين، وإنّ عناصر الجيش تقوم بالتصدّي لهم. وقبل أن يشعر بالطمأنينة جرّاء اكتمال خارطته بأدقّ تفاصيلها، دوّى انفجار قريب اهتزّ المبنى على إثره، وتلته أصوات رصاص وعويل وصراخ، ومن ثمّ توالت القذائف التي بدت أكثر قرباً، ما جعله ينتفض عن الأريكة، ويهرع نحو الباب، فيفتحه وينزل الأدراج بسرعة كبيرة ليصل إلى الشّارع، ويعدو هائماً على وجهه، وهو يسمع من حوله صراخ رجال، وعويل نسوة، وبكاء أطفال، يبدو أنّهم جميعاً يركضون مثله، فيصطدم أحياناً بأجسادهم ويتجاوزهم، أو يتجاوزونه، ليسمع بعد ذلك صوت انهيار بناء جرّاء قذيفة انفجرت فيه، تلاه صوت قذيفة انفجرت خلفه فاختفى على أثرها صراخ مجموعة ممّن كانوا يركضون، ومن ثمّ صرخة رجل يبدو أنّه تلقّى رصاصةً، تبعه بكاء طفل كان يحمله.

اجتاز الشّارع بسرعة كبيرة، وانعطف عند النّاصية باتجاه الشّارع الرئيس دون أن ينتبه إلى أنّه لم يفتح عينيه حتّى اللحظة، وعند مبنى البلديّة سمع وقع خطوات الجنود، وصليل أسلحتهم، ومن ثمّ رشقات طويلة متقطّعة من الرّصاص، قبل أن يسمع صوت شاحنات صغيرة تعبر الشّارع، يتدافع النّاس

للوصول إليها، وإذ به يتمكّن من الإمساك بذراع شاب يعبر بجواره ساعده للوصول إلى إحدى الشّاحنات المتوقفة، ليحشر نفسه بين عشرات الأجساد المنهكة، المذعورة. وتبتعد الشّاحنة بسرعة كبيرة، فتخفتُ أصوات الرّصاص والقذائف تدريجياً، حتى تتلاشى تماماً مع وصول الشّاحنة إلى البلدة المجاورة. فيفتح عينيه هناك على حياة طبيعيّة، كأنّ شيئاً لا يحدث في البلاد، إذا ما استثنينا القليل من الشعارات والعبارات المتناثرة على بعض الجدران، فالشوّارع هنا يملؤها صخب السيّارات والمارّة، وضجيج الباعة الجوّالين المتواصل، وأصوات المغنّين الرديئة المنبعثة من المطاعم.

أمعن في تأمّل تفاصيل البلدة، قبل أن تتوقّف الشّاحنة أمام مدرسة ستكون مأوىً لهم ريثما يتمكّنون من العودة إلى بلدتهم. مدرسة تشبه مدرسة طفولته، عرف ذلك وهو يقف أمام بوّابتها التي يحفظ أبعادها جيّداً، فاجتازها مغمض العينين، مؤكّداً لنفسه ما شعر به.

وحين أعلن التلفاز والمذياع عن انتهاء الأعمال العسكرية في البلدة، كان أوّل المتحمّسين للعودة، فاستعدّ لمغادرة المدرسة، متجاهلاً نصائح الآخرين بضرورة التريّث في أمرٍ كهذا، إذ ليس هناك ما يمنع تجدّد الاشتباكات. ودّع مجموعة من الأشخاص الذين تعرّف إليهم هنا، واعداً إيّاهم بأن يحمل إليهم أخبار بلدتهم بأسرع وقت، وقبل أن يخرج من القاعة الكبيرة، توقّف متسمّراً أمام مشاهد مصوّرة للبلدة يبثها التلفاز، في نقل مباشر، للتأكيد على عودة الأمان إليها. شعر في هذه اللحظة برعشة من البرد تسري في أصابع رجليه وتمضي إلى أعلى رأسه، وهو يرى مشاهد الدّمار الهائل الذي حلّ ببلدته. وحين دنت الكاميرا من شارعه أحسّ بقلبه يوشك على التوقّف أثناء بحثه بين الرّكام عمّا يدلّه على شارع كان يقطنه، وكان يضجّ بالحياة، فلا يرى غير أكوام من الحجارة والتراب، وبقايا الأثاث المحروق، وأشلاء جثث متناثرة في أكثر من مكان. شعر بالدوار حين اجتازت الكاميرا مساحة خالية إلّا من الرّكام، عرف فيها مكان بيته. هناك حيث لا أثر لبناء ضخم كان بيته جزءاً منه. وبينما كان مذيع النّشرة يذيع أسماء بعض الضّحايا الذين سقطوا في هذا الحيّ، أغمض عينيه، واستدار باتجاه باب القاعة واجتازها، مغادراً المدرسة إلى شوارع لا يعرفها. راح يمشي فيها كغريبٍ أعمى يكتفي باستعادة تفاصيل حياته كما حفظها طوال السنوات الماضية. فهو يستيقظ كلّ يوم ليشرب قهوته على شرفة منزله، ثم يغادر مع اقتراب موعد العمل. يلقي التحيّة على أبي محمود بائع الخضار، ويشتري الجريدة من المكتبة المجاورة، ولا ينسى أن يسترق النّظر إلى نافذة سهيلة، ويبتسم لرؤيته شعرها المبلول، وما تسمح به شفافية ثوبها. وبمرور الوقت راح يلحظ التغيّر الذي يطرأ على حيّه، حيث تضاف حاوية قمامة في ركن منه، أو يتمّ ردم حفرة فيه بينما تنشأ مجموعة حفر جديدة، ويرى كيف بدأ التعب يظهر على أبي محمود وهو يقوم

بنشر صناديق خضاره على الرّصيف، واستطاع أيضاً رؤية بعض الشعرات البيض تتسلل إلى رأس سهيلة.

كانت الحياة مستمرّة خلف جفنيه المغمضين، غير مكترثة لموت أبي محمود بقذيفة أصابت بيته قبل أن يتمكّن من مغادرته، ولا لجثّة سهيلة التي عثر عليها بعد يومين مدفونة تحت الرّكام، وقد دلّ عليها شعرها الذي كانت بعض خصلاته المغطاة بالغبار تحرّكها ريح ناعمة ضربت المكان.

راح يمشي في شوارع المدينة كلّ يوم. يعيش حياة كاملة خلف جفنيه المغمضين، غير آبهٍ بما يدور حوله، وغير منتبه إلى أعداد كبيرة من سكّان المدينة يجوبون شوارعها بعيون مغمضة على الدّوام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دوبلاج

– لقد متُّ.

– أنا آسفة. متى حدث ذلك؟

– منذ ثلاثة أيّام

– والآن؟ ماذا ستفعلين؟

– إنني أبحث عن فرصة جديدة.

توقّف المصعد وفتح بابه. ترجّلت الفتاتان، بينما هو لا يزال ذاهلاً، كمن أصابه مسّ كهربائي. تابع المصعد هبوطه، وحين توقف في الطابق الأرضي، أيقظته الجموع المتدافعة للصعود من ذهوله فخرج، وقبل أن يقرّر العودة إلى المصعد، كان الباب قد أغلق وراحت الأرقام تتبدّل على اللوحة المضاءة صعوداً. فكّر قليلاً محاولاً تذكّر رقم الطابق الذي نزلت فيه الفتاتان، لكن ذاكرته لم تسعفه، فذهوله أمام ما كانتا تقولانه منعه من الانتباه في أيّ طابق ترجّلتا.

غادر المبنى الشاهق، وانخرط في زحمة الشارع وسط الأجساد المتعرّقة من الحرّ الخانق. راح يمشي هائماً، وفي رأسه تتلاحق الكلمات "لقد مت. متى حدث ذلك؟ مذ ثلاثة أيّام". استعاد وجه الفتاة التي صرّحت بأنّها ماتت، تذكّر شحوباً كان يكسو ملامحها، وأنّه استطاع تبيّن بقع ورديّة أشبه بطفح جلديّ على بشرتها البيضاء الشفيفة. حاول استعادة صورة عينيها، تذكّر أنهما كانتا مفتوحتين عن آخرهما، وأن اصفراراً ما كان يشوب بياضهما، بينما بدت حدقتاهما سوداوين ضيقتين. ارتجفت أصابعه، وسقطت سلسلة مفاتيحه قبل أن يفتح باب البيت، فالتقطها بالأصابع المرتجفة، وهو يتحسّس جسده ليتأكّد أنّه لا يزال حيّاً.

رائحة الطعام المنبعثة من المطبخ أعادت إليه شيئاً من الطمأنينة بعد أن دخل البيت. سارع لرؤية زوجته، فلاقته بترحابها المعتاد، مؤكدة بذلك أنّه لا يزال حيّاً قادراً على أن يشمّ الروائح، ويسمع صوت زوجته، ويلمس جسدها، ويتحدّث إليها. غير أنّ قلقاً بارداً اجتاحه حين سألته الزوجة وهي تحدق فيه بخوف:

– تبدو شاحباً. هل حدث شيء؟

وقف بسرعة أمام المرآة متفحّصاً وجهه. وقبل أن ينهار وهو يلحظ شحوب وجهه، أنقذته الزوجة بلطف صوتها وهي تقول:

– لا داعي للقلق. أظنك مرهقاً فقط. ليس من السهل إنجاز المعاملات الحكوميّة. عليك أن ترتاح قليلاً.

تأكّد أنّه يسمع صوت زوجته الذي اعتاده منذ ست سنوات، ويشعر بدفئها الذي يحب. إذاً لا يمكن أن يكون ميتاً. اندسّ في السرير طلباً للراحة، غير أنّ وجه الفتاة الميتة لم يفارقه لحظة. تذكّر أنّ صوتها كان بارداً ونبرتها حياديّة بطريقة لا يمكن أن يمتكلها غير الموتى. حاول عبثاً تذكّر وجه الفتاة التي كانت ترافقها، فمنذ اللحظة الأولى كان مستلباً للفتاة الميتة، ولم يلق نظرة واحدة إلى مرافقتها. "ربّما لم يكن برفقتها أحد، أو أنّها كانت تتحدّث إلى ميت آخر غير مرئي". اجتاحته في تلك اللحظة رائحة عطر قويّة جعلته يجلس في السرير متوثباً، إنّه يذكر جيداً اللحظة التي شمّ فيها هذه الرائحة. كان ذلك حين فتح باب المصعد وولجت الفتاتان، أو ربما الفتاة الميتة ومرافقتها اللامرئية إلى المصعد، حينذاك كان منشغلاً بمراجعة الأختام على ورقته للتأكّد من أنّه لم ينس شيئاً يضطره للعودة إلى هذا المبنى الذي صرف الكثير من وقته خلال الأسابيع الماضية في زيارته، فأيقظته الرائحة من انشغاله، لينتبه إليها فيستلبه وجهها السقيم. فكّر أنّ عطراً كذاك الذي يضج بالحياة لا يمكن أن يكون على جسد ميت، ولكن ما الذي يؤكّد أنّ تلك الرائحة كانت تنبعث منها؟ أحسّ بمزيد من الخوف حين استعاد عدداً من الأفلام الأميركية التي سبق أن شاهدها، والتي تروي حكايات عن أناس يلتقون الموتى، قبل أن يكتشفوا في نهاية تلك الأفلام أنّهم موتى أيضاً. لكنّه يستطيع الآن رؤية زوجته، والإصغاء إلى أنفاسها وهي تغطّ في نوم عميق، كما يمكنه أن يستثار لمرأى فخذيها العاريين، "لا يمكن للميت أن يشعر بالإثارة" فكّر، قبل أن يغادر سريره، ليقف على الشرفة يدخن سيجارته، وهو يرنو إلى المدينة تكشفها بكسل أشعة الفجر الفضيّة. أحرق أصابعه مراراً بجمرة سيجارته للتأكد أنّه لا يزال حيّاً يشعر بالألم. أحسّ بلذّة الألم في تلك اللحظات. إنّه برهان قاطع على أنّه لا يزال حيّاً.

قبل أن يكتمل شروق الشمس عاوده بغتة الجزء الأخير من حوار الفتاة الميتة مع رفيقتها: "والآن؟ ماذا ستفعلين؟ إنني أبحث عن فرصة جديدة". أحسّ عندئذ بما يشبه الدوار، وهو يتابع حركة السيارات والمارّة في الشارع الذي بدأ يزدحم. كيف يمكن لميت أن يبحث عن فرصة جديدة؟ هل كانت تقصد فرصة الحياة مرّة أخرى؟ أسئلة كثيرة راحت تضج في رأسه حتى أوشك على فقدان توازنه، فتمسّك بالدرابزين مذعوراً، قبل أن ينتبه إلى صوت زوجته تتساءل لماذا لم تجده نائماً إلى جوارها. فالتفت إليها مباشرة متسائلاً:

– هل يحوز الموتى على فرص جديدة؟

اتسعت عينا الزوجة دهشة وهي تدنو منه قلقة، وضعت يدها برفق على جبينه:

– حرارتك مرتفعة. لقد ازددت شحوباً عن الأمس.

حدّق بعيني زوجته جيداً. لحظ اصفراراً طفيفاً في بياضهما، وكذلك استطاع أن يتبيّن بعض البقع الورديّة على بشرتها، فارتدّ إلى الخلف مذعوراً وهو يصرخ: – إننا ميتان.

أسرعت الزوجة إلى تهدئته، مؤكدة له أنّهما لا يزالان على قيد الحياة، وأنّه أنجز المعاملة التي ستمكّنهما من الحصول على بيت خاص بهما بعد طول عناء، وأنّ حياةً أخرى تختلج الآن في بطنها. مدّ يده الباردة إلى بطنها المتكوّرة، لامسها برفق، فأحسّ بهدوء يتسلل إليه. عندئذ قرّر العودة سريعاً إلى ذلك المبنى الملعون، يريد معرفة أيّ سرّ يكمن وراء تلك الفتاة الميتة.

عند باب المصعد وقف بين الجموع المنتظرة يحاول عبثاً تذكّر رقم الطابق الذي ترجّلت فيه الفتاتان. اقترب من اللوحة الكبيرة التي تحمل أرقام الطوابق الإثنين والعشرين وما تحتويه من مكاتب ومؤسسات، وراح يقرأ عناوين تختلط في رأسه بين شركات صرافة، وسفارات، شركات طيران، مكاتب سياحية، مكاتب انتاج تلفزيوني، مكاتب تأمين، أطباء، محامين، ومهندسين. أحسّ بالدوار مجدداً، فابتعد قليلاً نحو الخارج شاعراً بخفّة غريبة، كأنّما فقد وزنه تماماً. وعند مدخل المبنى جلس متكئاً إلى الجدار، تعبر أمامه جموع الداخلين والخارجين كظلال لا يمكنه أن يتبيّن ملامحها. أشعل سيجارته، وراح يعب الدخان بشراهة دون أن يشعر بأي طعم، فعمد إلى إحراق إصبعه بحثاً عن الألم الذي يؤكّد له أنّه لا يزال حياً، لكنّه لم يشعر بشيء. أشعل ولاعته وألصق لهبها بأصابعه دون جدوى، إذ راح اللهب يدور ملتفّاً على أصابعه دون أن يحظى بالألم الذي يبحث عنه، فأيقن آنذاك أنه ميت دون شك، وأنّ أحداً من العابرين لا يمكنه رؤيته، كما يعجز هو عن رؤية أو سماع أيّ شيء. أغمض عينيه عندئذ وراحت أنفاسه تهدأ بوتيرة منتظمة بينما كانت الفتاتان تعبران بجواره في تلك اللحظة خارجتين من المبنى وهما تضحكان:

– هل أكّد لك المخرج أنّك ستلعبين ذلك الدور؟

– طبعاً. حين أخبرته أنّ الشخصيّة التي كنتُ ألعبها ماتت في الحلقة الخامسة، وأنني بذلك سأكون عاطلة عن العمل، قرّر أن أمنح صوتي، مع تغيير طفيف في النبرة، لشخصيّة أخرى ستكون بطلة المسلسل حتى الحلقة الأخيرة.

– انظري إلى هذا الرجل ينام هنا كالميت.

– ربما يجد مخرجاً يمنحه فرصة جديدة.

قالت ضاحكة وهي تقفز على الدرجات الخمس غير عابئة بنسمات هواء تتلاعب بأطراف فستانها القصير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل أن تبرد القهوة

دخل المنزل مبتلّاً تماماً.

المطر في الخارج لم يتوقف منذ الصباح. بعد أن خلع معطفه انتبه إلى وروده المبتلّة أيضاً، شعر بالأسف لرؤية أوراقها الحمراء وقد تراخت تحت ثقل قطرات الماء، وما لبث أن ابتسم ابتسامة طفيفة، وهو يلحظ فرحاً يستوطن تلك الأوراق المتراخية، فعدل عن رأيه بتجفيفها، وقام بوضعها على الطّاولة، بعناية، في الرّكن الذي اختارته حبيبته دائما ليكون مكاناً للورود. نظر إلى ساعته: "ما يزال هناك متّسع من الوقت" قال ذلك وهو يدلف إلى الحمّام.

أمام المرآة تعرّى بفرح، تأمّل تفاصيل جسده – كالعادة – وابتسم بمرح، وهو يلحظ ازدياداً طفيفاً في استدارة بطنه، "ها قد بدأت علامات أمراض المهنة" فكّر بذلك دون أيّ غضاضة، ثمّ وقف تحت ماء الدوش الدافئ ليبدأ الاستحمام، وهو يستعيد محادثته الأخيرة مع حبيبته.

– طالما أصبح عملك يتطلب الجلوس لفترة طويلة عليك إذا أن تمارس الرياضة للحفاظ على جسدك.

– هل ستتركينني حين أغدو ذا كرش؟

– سأحبك كيفما كنت.

ضحك وهو يتذكّر ذلك، غادر الحمّام، نظر إلى السّاعة مجدداً، وبدأ يتحرّك بسرعة كسباً للوقت. ارتدى الملابس التي اشتراها اليوم لهذه المناسبة. الملابس التي كانت حبيبته قد أبدت إعجابها بها قبل أسبوع أثناء سيرهما في إحدى الأسواق. ثمّ رشّها بالعطر الذي أهدته إيّاه في ذكرى ميلاده، وبدأ بترتيب البيت كما يليق بالمناسبة التي وعد حبيبته بأن تكون مميّزة.

– ما الذي تفكّر به؟

– لا أفكّر إلا في أن يكون احتفالنا بيوم ميلادك يوازي هذا اليوم أهميةً.

– وهل تراه يوماً مميزاً؟

سألته وهي تبتسم بسعادة منتظرةً الجواب الذي تحفظه جيّداً.

– أعتقد أنه اليوم الذي قدّم للحياة الإضافة الأجمل. وجودك جعل للحياة معاني جديدة.

لا يزال يذكر التماعة عينيها العسليتين في كلّ مرّة كانت تسمع فيها هذه العبارة التي أدمن تكرارها منذ بدأت علاقتهما قبل ثمانية أشهر.

كان الوقت شتاء في ذلك اليوم. وكان تحت المطر ينتظر سيارة أجرة تقلّه إلى عمله السّابق في مشتل الورود. العمل الذي ارتضاه قبل خمس سنوات على أنّه مؤقت، ريثما يتمكن من الحصول على بديل أفضل يستفيد فيه من شهادة الكومبيوتر التي يحملها.

بعد أن جلس في المقعد المجاور للسّائق، وقبل أن تقلع السيّارة انتبه إلى الفتاة الرّاكضة تحت المطر، وقد ابتلّت تماماً، وهي تشير للسيّارة بما يشبه التّوسّل. طلب إلى السّائق أن يتوقّف ويقلّها معه. لم تتردّد الفتاة بالصعود إلى السيّارة، والجلوس في مقعدها الخلفي.

– شكراً لك.

قالت بنبرة محايدة بعد دقائق طويلة من إقلاع السيّارة، فانتبه لوجودها في المقعد الخلفي بعد أن كان قد انشغل بالتفكير بالوظيفة الجديدة التي وعد بتسلّمها خلال أسبوع. نظر إلى المرآة الجانبية ليجد وجهاً أنثوياً مغرقاً في عاديته، ومبتلاً بماء المطر المستمرّ بالتقاطر من شعرها. ابتسم بلطف، وتلاشت ابتسامته بهدوء حين لمح دموعاً تنهمر من عينيها، فتمتزج بقطرات المطر، وتسيل على خديها غزيرة.

حين ترجّلتْ من السيّارة كان قد حسم أمره وقرّر عدم الذّهاب إلى العمل اليوم، فترجّل خلفها، وتبعها بهدوء، وقبل أن تدخل بيتها استوقفها: – هل لي بالحديث إليك قليلاً؟

التفتت إليه، وحدّقت به طويلاً دونما كلمة. كانت دموعها تسيل على خديها دون توقّف، ولم يدر آنذاك أنّها من منحته الشجاعة أن يمدّ يده إليها برفق، لتمسك بها دون تردّد، ويمشيا معاً بعض الوقت صامتين، قبل أن يجلسا في أحد المقاهي، ويدنو النّادل منهما بلباقة.

– قهوة.

كانت الكلمة الوحيدة التي نطقت بها حتّى الآن.

لم يتحدّثا في ذلك اليوم إلّا بعض العبارات القليلة التي ساعدت على توقفها عن البكاء، ومن ثمّ رافقها إلى باب بيتها، وتبادلا رقمي هاتفيهما.

– شكراً لك.

شكرته ثانية، ولكن بنبرة فيها الكثير من الامتنان هذه المرّة.

– لولا بكاؤك لما انتبهت إليك.

هذا ما اعترف به لاحقاً حين سألته عمّا دفعه للحاق بها ذلك اليوم.

– إذاً عليّ البكاء دوماً.

قالت ضاحكة بعد أن اعترف لها بحبّه، وبعد أن قصّت عليه سبب بكائها في ذلك اليوم، حيث دخلت منزل حبيبها السّابق دون موعد لتجد امرأة أخرى ترقد في سريرها، مرتدية ثياب النوم خاصّتها.

– كان ينظر إليّ نظرة ذاهلة، بينما ابتسمت هي ابتسامة شماتة طويلة. شعرت بانقباض كبير في معدتي، وبعد لحظات كنت أقف تحت المطر، ولم أدرك أنني كنت أبكي إلا حين أخبرتني أنت بذلك ونحن نشرب القهوة.

انتهى من ترتيب البيت كما يليق باحتفال يريد له أن يكون استثنائيّاً. وزّع في أرجاء المنزل الشّموع الحمراء، التي اعتادت حبيبته شراءها كلما جاءت لزيارته، اختار عدداً من الأسطوانات التي تحبّ سماعها، ورتّبها وفق تسلسل يعتقد أنّه سيعجبها. رتّب المائدة واضعاً عليها أصنافاً من الطّعام التي تحب، ولم ينس السفرجل، فاكهتها المفضّلة، وأخيراً وضع على المائدة زجاجتي النبيذ الفاخر اللتين ابتاعهما بمبلغ كبير لهذه المناسبة. ثمّ وقف أمام الباب يتفحّص المشهد بدقّة خشية أن يكون قد نسي شيئاً. ارتسمت على شفتيه ابتسامة طفيفة. اتّسعت تدريجياً، لتتحوّل إلى ضحكة سعادة لم يعهدها منذ زمن طويل. نظر إلى ساعته، إنّه موعد وصولها. تذكّر القهوة في هذه اللحظة.

– لن تأتي إن لم أصنع القهوة.

تمتم بذلك وأسرع إلى المطبخ. ملأ الركوة بالماء، ووضعها فوق النار وهو يبتسم مستعيداً عبارتها الشهيرة: – مكان لا تفوح منه رائحة القهوة سيمنعني قدرٌ ما من الوصول إليه.

حمل الركوة كمن يحمل مبخرة، ودار بها في أرجاء المنزل متعمّداً أن تسكن تلك الرائحة كلّ ركن فيه، ثمّ جلس أمام الطّاولة، وملأ فنجانَي القهوة بهدوء شديد وهو يتمتم: – اعتادت أحياناً الوصول بينما أسكب الفنجان الثاني.

ملأ الفنجان الثاني والتفت ناحية الباب، لكنّ الباب لم يفتح. ابتسم بهدوء: – أحياناً كانت تصل بينما أشرب فنجاني الخاص.

شرب قهوته بهدوء شديد، ودخّن عدداً من السجائر، وهو يستعيد المرّات التي تأخّرت فيها عن الموعد، وتبريراتها المضحكة التي كانت تسوقها دوماً، "ما يهم أنني وصلت قبل أن تنهي فنجانك"... "لقد تأخرت بالاستيقاظ اليوم، ولكن لا مشكلة، المهم أنّني وصلت قبل أن تبدأ بشرب فنجان آخر"... "أنا آسفة، كنت متعبة، ونسيت تماماً أنّي وعدتك بالمجيء، ولكن لا يهم طالما أنّي وصلت قبل أن تبرد القهوة".

أنهى استعاداته تلك، وهو يطفئ سيجارته الخامسة، وانتبه عندئذ إلى أنّ البخار قد توقّف عن التّصاعد من الركوة، وأنّه قد أنهى فنجانه الثاني، وأنّ الشموع قد احترق أكثر من نصفها. مدّ يده، وبأصابع مرتجفة تحسّس الركوة، فأحسّ دفئاً بسيطاً ما زال يسكنها. أغمض عينيه، وأرهف السمع بانتظار صوت خطواتها التي ستصعد الدّرج بعد قليل، امتدّ الوقت طويلاً قبل أن يدفن رأسه بين يديه، مغلقاً أذنيه بإحكام، متجنّباً الضّجيج الهائل الذي يحدثه النمل في الخارج بحركته الدؤوب التي لا تتوقف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

منشور سرّي
الاستقالة
الطّريق إلى البيت
نيرفانا
القنّاص
اللثغة
النظّارة
امرأتان
الهاربان
طفلتان
بائع الورود
روماتيزم
عيونٌ مغمضة
دوبلاج
قبل أن تبرد القهوة

الفهرس..